في ظلال القرآن

الجزء السادس عشر

بقلم

سيد قطب

الطبعة الأولى

طبع بدار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

فى ظلال القرآن

الجزء السادس عشر

بقلم

سيد قطب

الطبعة الأولى

طبع بدار إحياء الكتب العربية
عيسى البابى الحلبى وشركاه

من سورة الكهف

بسم الله الرحمن الرحيم

« أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا ، وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً * وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً * فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً * وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ ، وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا ، وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً ، فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا . رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ، وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي . ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً[1] » .

***

« وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ . قُلْ : سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً * إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ ، وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً * فَأَتْبَعَ سَبَباً * حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ، وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْماً . قُلْنَا : يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً * قَالَ : أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُكْراً * وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى ، وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً .

« ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً * حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْراً * كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْراً .

« ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً * حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْماً لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً * قَالُوا : يَاذَا الْقَرْنَيْنِ : إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ، فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً * قَالَ : مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي

---

(١) سبق تفسير هذه الآيات فى الجزء الخامس لارتباطها به .

خَيْرٌ ، فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً * آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ . حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ : انْفُخُوا . حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ : آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً * فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً * قَالَ : هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي ، فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً .

« وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ، وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً * وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضاً * الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي ، وَكَانُوا لاَ يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً * أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ ؟ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً .

« قُلْ : هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً * أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً * ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً * خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً .

« قُلْ : لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً .

« قُلْ : إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ، فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً » .

هـذا الدرس الأخير فى سورة الكهف قوامه قصة ذى القرنين ، ورحلاته الثلاث إلى الشرق وإلى الغرب وإلى الوسط ، وبناؤه للسد فى وجه يأجوج ومأجوج .

والسياق يحكى عن ذى القرنين قوله بعد بناء السد : « قال : هذا رحمة من ربى فإذا جاء وعد ربى جعله دكاء ، وكان وعد ربى حقا » . . ثم يعقب الوعد الحق ، بالنفخ فى الصور ومشهد من مشاهد القيامة .. ثم تختم السور بثلاثة مقاطع ، يبدأ كل مقطع منها : بقوله : « قل » .

وهذه المقاطع تلخص موضوعات السورة الرئيسية واتجاهاتها العامة . وكأنما هى الإيقاعات الأخيرة القوية فى اللحن المتناسق ..

* * *

وتبدأ قصة ذى القرنين على النحو التالى :

«ويسألونك عن ذى القرنين . قل : سأتلو عليكم منه ذكرا » ..

وقد ذكر محمد ابن اسحاق سبب نزول هذه السورة فقال : «حدثنى شيخ من أهل مصر قدم علينا منذ بضع وأربعين سنة ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : « بعثت قريش النضر ابن الحارث ، وعقبة ابن أبى معيط إلى أحبار يهود بالمدينة ، فقالوا لهم : سلوهم عن محمد ، وصفوا لهم صفته ، وأخبروهم بقوله ، فإنهم أهل الكتاب الأول ، وعندهم ماليس عندنا من علم الأنبياء . . فخرجا حتى أتيا المدينة فسألوا أحبار يهود عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ووصفوا لهم أمره وبعض قوله ، وقالا : إنكم أهل التوراة ، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هـذا . قل : فقالوا لهم : سلوه عن ثلاث نأمركم بهن . فإن أخبركم بهن فهو نبى مرسل ، وإلا فرجل متقول تروا فيه رأيكم : سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول . ما كان من أمرهم ؟ فإنهم كان لهم حديث عجيب . وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها . ما كان نبؤه ؟ وسلوه عن الروح ماهو ؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبى فاتبعوه ، ، وإن لم يخبركم فإنه رجل متقول فاصنعوا فى أمره مابدا لكم . . فأقبل النضر وعقبة حتى قدما على قريش ، فقالا : يامعشر قريش ، قد جئناكم بفصل مابينكم وبين محمد . قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور . . . فأخبروهم بها . فجاءوا رسول الله — صلى

الله عليه وسلم ـ فقالوا : يامحمد أخبرنا . . . فسألوه عما أمرهم به . فقال لهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « أخبركم غدا عما سألتم عنه» ـ ولم يستثن(١) ـ فانصرفوا عنه . . ومكث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خمس عشرة ليلة لا يحدث الله له فى ذلك وحيا ، ولا يأتيه جبريل عليه السلام ، حتى أرجف أهل مكة ؛ وقالوا : وعدنا محمد غدا ، واليوم خمس عشرة قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشىء عما سألناه عنه . وحتى أحزن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مكث الوحى عنه ؛ وشق عليه مايتكلم به أهل مكة . ثم جاءه جبرائيل ـ عليه السلام ـ من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف ، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم ، وخبر ماسألوه عنه من أمر الفتية ، والرجل الطواف ، وقول الله عز وجل : «ويسألونك عن الروح ...» الآية .

هذه رواية .. وقد وردت عن ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ رواية أخرى فى سبب نزول آية الروح خاصة ، ذكرها العوفى . وذلك أن اليهود قالوا : للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أخبرنا عن الروح . وكيف تعذب الروح التى فى الجسد وإنما الروح من الله ؟ ولم يكن نزل عليه شىء . فلم يحر إليهم شيئاً . فأتاه جبريل فقال له : « قل : الروح من أمر ربى ، وماأوتيتم من العلم إلا قليلا » ... إلى آخر الرواية .

ولتعدد الروايات فى أسباب النزول ، نؤثر أن نقف فى ظل النص القرآنى المستيقن . ومن هذا النص نعلم أنه كان هناك سؤال عن ذى القرنين . لا ندرى ـ على وجه التحقيق ـ من الذى سأله . والمعرفة به لا تزيد شيئا فى دلالة القصة . فلنواجه النص بلا زيادة .

إن النص لا يذكر شيئا عن شخصية ذى القرنين ولا عن زمانه أو مكانه . وهذه هى السمة المطردة فى قصص القرآن . فالتسجيل التاريخى ليس هو المقصود . إنما المقصود هو العبرة المستفادة من القصة . والعبرة تتحقق بدون حاجة إلى تحديد الزمان والمكان فى أغلب الأحيان .

والتاريخ المدون يعرف ملكا اسمه الاسكندر ذو القرنين . ومن المقطوع به أنه ليس ذا القرنين المذكور فى القرآن . فالإسكندر الإغريقى كان وثنيا . وهذا الذى يتحدث عنه القرآن مؤمن بالله موحد معتقد بالبعث والآخرة .

ويقول أبو الريحان البيرونى المنجم فى كتاب : « الآثار الباقية عن القرون الخالية » إن

---

(١) يعنى لم يقل . إلا أن يشاء الله .

ذا القرنين المذكور فى القرآن كان من حمير مستدلا باسمه . فملوك حمير كانوا يلقبون بذى . كذى نواس وذى يزن . وكان اسمه أبو بكر ابن افريقش . وأنه رحل بجيوشه إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط ، فمر بتونس ومراكش وغيرهما ؛ وبنى مدينة إفريقية فسميت القارة كلها باسمه . وسمى ذا القرنين لأنه بلغ قرنى الشمس .

وقد يكون هذا القول صحيحاً . ولكننا لا نملك وسائل تمحيصه . ذلك أنه لا يمكن البحث فى التاريخ المدون عن ذى القرنين الذى يقص القرآن طرفا من سيرته ، شأنه شأن كثير من القصص الوارد فى القرآن كقصص قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وغيرهم . فالتاريخ مولود حديث العهد جدا بالقياس إلى عمر البشرية . وقد جرت قبل هذا التاريخ المدون أحداث كثيرة لا يعرف عنها شيئاً . فليس هو الذى يستفتى فيها !

ولو قد سلمت التوراة من التحريف والزيادات لكانت مرجعاً يعتمد عليه فى شىء من تلك الأحداث . ولكن التوراة أحيطت بالأساطير التى لا شك فى كونها أساطير . وشحنت كذلك بالروايات التى لا شك فى أنها مزيدة على الأصل الوحى به من الله . فلم تعد التوراة مصدراً مستيقناً لما ورد فيها من القصص التاريخى .

وإذن فلم يبق إلا القرآن . الذى حفظ من التحريف والتبديل . هو المصدر الوحيد لما ورد فيه من القصص التاريخى .

ومن البديهى أنه لا تجوز محاكمة القرآن الكريم إلى التاريخ لسببين واضحين :

أولهما : أن التاريخ مولود حديث العهد ، فاتته أحداث لا تحصى فى تاريخ البشرية ، لم يعلم عنها شيئا . والقرآن يروى بعض هذه الأحداث التى ليس لدى التاريخ علم عنها !

وثانيهما : أن التاريخ ـ وإن وعى بعض هذه الأحداث ـ هو عمل من أعمال البشر القاصرة يصيبه ما يصيب جميع أعمال البشر من القصور والخطأ والتحريف . ونحن نشهد فى زماننا هذا ـ الذى تيسرت فيه أسباب الاتصال ووسائل الفحص ـ أن الخبر الواحد أو الحادث الواحد يروى على أوجه شتى ، وينظر إليه من زوايا مختلفة، ويفسر تفسيرات متناقضة . ومن مثل هذا الركام يصنع التاريخ ، مهما قيل بعد ذلك فى التمحيص والتدقيق !

فمجرد الكلام عن استفتاء التاريخ فيما جاء به القرآن الكريم من القصص ، كلام تنكره

القواعد العلمية المقررة التى ارتضاها البشر ، قبل أن تنكره العقيدة التى تقرر أن القرآن هو القول الفصل . وهو كلام لا يقول به مؤمن بالقرآن ، ولا مؤمن بوسائل البحث العلمى على السواء . إنما هو مراء !!!

* * *

لقد سأل سائلون عن ذى القرنين . سألوا الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأوحى إليه الله بما هو وارد هنا من سيرته . وليس أمامنا مصدر آخر غير القرآن فى هذه السيرة . فنحن لا نملك التوسع فيها بغير علم . وقد وردت فى التفاسير أقوال كثيرة ، ولكنها لا تعتمد على يقين . وينبغى أن تؤخذ بحذر ، لما فيها من إسرائيليات وأساطير .

وقد سجل السياق القرآنى لذى القرنين ثلاث رحلات : واحدة إلى المغرب ، وواحدة إلى المشرق ، وواحدة إلى مكان بين السدين . . فلنتابع السياق فى هذه الرحلات الثلاث .

* * *

يبدأ الحديث عن ذى القرنين بشىء عنه :

« إنا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شىء سببا » . .

لقد مكن الله له فى الأرض ، فأعطاه سلطانا وطيد الدعائم ؛ ويسر له أسباب الحكم والفتح ، وأسباب البناء والعمران ، وأسباب السلطان والمتاع . . وسائر ما هو من شأن البشر أن يمكنوا فيه فى هذه الحياة .

« فأتبع سببا » . ومضى فى وجه مما هو ميسر له ، وسلك طريقه إلى الغرب .

« حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة ، ووجد عندها قوما . قلنا : يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا . قال : أما من ظلم فسوف نعذبه ، ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا . وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى ، وسنقول له من أمرنا يسرا » .

ومغرب الشمس هو المكان الذى يرى الرائى أن الشمس تغرب عنده وراء الأفق . وهو

يختلف بالنسبة للمواضع . فبعض المواضع يرى الرائى فيها أن الشمس تغرب خلف جبل . وفى بعض المواضع يرى أنها تغرب فى الماء كما فى المحيطات الواسعة والبحار . وفى بعض المواضع يرى أنها تغرب فى الرمال إذا كان فى صحراء مكشوفة على مد البصر . . .

والظاهر من النص أن ذا القرنين غرب حتى وصل إلى نقطة على شاطىء المحيط الأطلسى ـ وكان يسمى بحر الظلمات ويظن أن اليابسة تنتهى عنده ـ فرأى الشمس تغرب فيه .

والأرجح أنه كان عند مصب أحد الأنهار . حيث تكثر الأعشاب ويتجمع حولها طين لزج هو الحمأ . وتوجد البرك وكأنها عيون الماء . . فرأى الشمس تغرب هناك و « وجدها تغرب فى عين حمئة » . . ولكن يتعذر علينا تحديد المكان ، لأن النص لا يحدده . وليس لنا مصدر آخر موثوق به نعتمد عليه فى تحديده . وكل قول غير هذا ليس مأموناً لأنه لا يستند إلى مصدر صحيح .

عند هذه الحمئة وجد ذو القرنين قوما : « قلنا : يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا » .

كيف قال الله هذا القول لذى القرنين ؟ أكان ذلك وحيا إليه أم إنه حكاية حال . إذ سلطه الله على القوم ، وترك له التصرف فى أمرهم فكأنما قيل له : دونك وإياهم . فإما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا ؟ كلا القولين ممكن ، ولا مانع من فهم النص على هذا الوجه أو ذاك . والمهم أن ذا القرنين أعلن دستوره فى معاملة البلاد المفتوحة ، التى دان له أهلها وسلطه الله عليها .

« قال : أما من ظلم فسوف نعذبه ، ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا . وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى ، وسنقول له من أمرنا يسرا » .

أعلن أن للمعتدين الظالمين عذابه الدنيوى وعقابه ، وأنهم بعد ذلك يردون إلى ربهم فيعذبهم عذابا فظيعا « نكرا » لا نظير له فيما يعرفه البشر . أما المؤمنون الصالحون فلهم الجزاء الحسن ، والمعاملة الطيبة ، والتكريم والمعونة والتيسير .

وهذا هو دستور الحكم الصالح . فالمؤمن الصالح ينبغى أن يجد الكرامة والتيسير

والجزاء الحسن عند الحاكم . والمعتدى الظالم يجب أن يلقى العذاب والإيذاء . . وحين يجد المحسن فى الجماعة جزاء إحسانه جزاء حسنا ، ومكانا كريما وعونا وتيسيرا ؛ ويجد المعتدى جزاء إفساده عقوبة وإهانة وجفوة . . عندئذ يجد الناس ما يحفزهم إلى الصلاح والإنتاج . أما حين يضطرب ميزان الحكم فإذا المعتدون المفسدون مقربون إلى الحاكم مقدمون فى الدولة ؛ وإذا العاملون الصالحون منبوذون أو محاربون . فعندئذ تتحول السلطة فى يد الحاكم سوط عذاب وأداة إفساد . ويصير نظام الجماعة إلى الفوضى والفساد .

* * *

ثم عاد ذو القرنين من رحلة المغرب إلى رحلة المشرق ، ممكنا له فى الأرض ، ميسرة له الأسباب :

« ثم أتبع سببا . حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا . كذلك وقد أحطنا بما لديه خبرا » .

وما قيل عن مغرب الشمس يقال عن مطلعها . فالمقصود هو مطلعها من الأفق الشرقى فى عين الرائى . والقرآن لم يحدد المكان . ولكنه وصف طبيعته وحال القوم الذى وجدهم ذو القرنين هناك : « حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا » . . أى إنها أرض مكشوفة ، لا تحجبها عن الشمس مرتفعات ولا أشجار . فالشمس تطلع على القوم فيها حين تطلع بلا ساتر . . وهذا الوصف ينطبق على الصحارى والسهوب الواسعة . فهو لا يحدد مكانا بعينه . وكل ما نرجحه أن هذا المكان كان فى أقصى الشرق حيث يجد الرائى أن الشمس تطلع على هذه الأرض المستوية المكشوفة ،وقد يكون ذلك على شاطىء إفريقية الشرقى . وهناك احتمال لأن يكون المقصود بقوله : « لم نجعل لهم من دونها سترا » أنهم قوم عراة الأجسام لم يجعل لهم سترا من الشمس . .

ولقد أعلن ذو القرنين من قبل دستوره فى الحكم ، فلم يتكرر بيانه هنا ، ولا تصرفه فى رحلة المشرق لأنه معروف من قبل . وقد علم الله كل ما لديه من أفكار واتجاهات .

ونقف هنا وقفة قصيرة أمام ظاهرة التناسق الفنى فى العرض .. فإن المشهد الذى يعرضه السياق هو مشهد مكشوف فى الطبيعة : الشمس ساطعة لا يسترها عن القوم ساتر . وكذلك ضمير ذى القرنين ونواياه كلها مكشوفة لعلم الله .. وكذلك يتناسق المشهد فى الطبيعة وفى ضمير ذى القرنين على طريقة التنسيق القرآنية الدقيقة .

***

« ثم أتبع سببا . حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا . قالوا : ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض ، فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا ؟ قال : مامكنى فيه ربى خير فأعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما . آتونى زبر الحديد . حتى إذا ساوى بين الصدفين قال : انفخوا . حتى إذا جعله نارا قال : آتونى أفرغ عليه قطرا . فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا . قال : هذا رحمة من ربى ، فإذا جاء وعد ربى جعله دكاء ، وكان وعد ربى حقا » .

ونحن لا نستطيع أن نجزم بشىء عن المكان الذى بلغ إليه ذو القرنين « بين السدين » ولا ماهما هذان السدان . كل مايؤخذ من النص أنه وصل إلى منطقة بين حاجزين طبيعيين ، أو بين سدين صناعيين . تفصلهما فجوة أو ممر . فوجد هنالك قوما متخلفين : « لا يكادون يفقهون قولا » .

وعندما وجدوه فاتحا قويا ، وتوسموا فيه القدرة والصلاح .. عرضوا عليه أن يقيم لهم سدا فى وجه يأجوج ومأجوج الذين يهاجمونهم من وراء الحاجزين ، ويغيرون عليهم من ذلك الممر ، فيعيثون فى أرضهم فسادا ؛ ولا يقدرون هم على دفعهم وصدهم .. وذلك فى مقابل خراج من المال يجمعونه له من بينهم » .

وتبعا للمنهج الصالح الذى أعلنه ذلك الحاكم الصالح من مقاومة الفساد فى الأرض فقد رد عليهم عرضهم الذى عرضوه من المال ؛ وتطوع بإقامة السد ؛ ورأى أن أيسر طريقة لإقامته هى ردم الممر بين الحاجزين الطبيعيين ؛ فطلب إلى أولئك القوم المتخلفين أن يعينوه بقوتهم المادية والعضلية : « فأعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما . آتونى زبر الحديد ».. فجمعوا له قطع الحديد ، وكومها فى الفتحة بين الحاجزين ، فأصبحا كأنهما صدفتان تغلفان ذلك الكوم

بينهما . « حتى إذا ساوى بين الصدفين » وأصبح الركام بمساواة القمتين « قال: انفخوا » على النار لتسخين الحديد « حتى إذا جعله نارا » كله لشدة توهجه واحمراره « قال : آتونى أفرغ عليه قطرا » أى نحاسا مذابا يتخلل الحديد ، ويختلط به فيزيده صلابة .

وقد استخدمت هذه الطريقة حديثا فى تقوية الحديد ؛ فوجد أن إضافة نسبة من النحاس إليه تضاعف مقاومته وصلابته . وكان هذا الذى هدى الله إليه ذا القرنين ، وسجله فى كتابه الخالد سبقا للعلم البشرى الحديث بقرون لا يعلم عددها إلا الله .

بذلك التحم الحاجزان ، وأغلق الطريق على يأجوج ومأجوج «فما اسطاعوا أن يظهروه» ويتسوروه « وما استطاعوا له نقبا » فينفذوا منه . وتعذر عليهم أن يهاجموا أولئك القوم الضعاف المتخلفين . فأمنوا واطمأنوا[1] .

ونظر ذو القرنين إلى العمل الضخم الذى قام به ، فلم يأخذه البطر والغرور ، ولم تسكره نشوة القوة والعلم . ولكنه ذكر الله فشكره . ورد إليه العمل الصالح الذى وفقه إليه ، وتبرأ من قوته إلى قوة الله ، وفوض إليه الأمر ، وأعلن مايؤمن به من أن الجبال والحواجز والسدود ستدك قبل يوم القيامة ، فتعود الأرض سطحا أجرد مستويا .

« قال : هذا رحمة من ربى ، فإذا جاء وعد ربى جعله دكاء . وكان وعد ربى حقا » .

وبذلك تنتهى هذه الحلقة من سيرة ذى القرنين . النموذج الطيب للحاكم الصالح ، يمكنه الله فى الأرض ، وييسر له الأسباب ؛ فيجتاح الأرض شرقا وغربا ؛ ولكنه لا يتجبر ولا يتكبر ، ولا يطغى ولا يتبطر ، ولا يتخذ من الفتوح وسيلة للغنم المادى ، واستغلال الأفراد والجماعات والأوطان ، ولا يعامل البلاد المفتوحة معاملة الرقيق ؛ ولا يسخر أهلها فى أغراضه وأطماعه .. إنما ينشر العدل فى كل مكان يحل به ، ويساعد المتخلفين ، ويدرأ عنهم العدوان دون مقابل ؛ ويستخدم القوة التى يسرها الله له فى التعمير والإصلاح ، ودفع العدوان

(١) كشف سد بقربة من مدينة « ترمذ » عرف بباب الحديد . وقد مر به فى أوائل القرن الخامس عشر الميلادى العالم الألمانى (سيلد برجر) وسجله فى كتابه . وكذلك ذكره المؤرخ الأسبانى (كلافيجو) فى رحلته سنة ١٤٠٣ وقال : إن سد مدينة باب الحديد على الطريق ـ سمرقند والهند ... وقد يكون هو السد الذى بناه ذو القرنين . .

وإحقاق الحق . ثم يرجع كل خير يحققه الله على يديه إلى رحمة الله وفضل الله ، ولا ينسى وهو في إبان سطوته قدرة الله وجبروته ، وأنه راجع إلى الله .

* * *

وبعد فمن يأجوج ومأجوج ؟ وأين هم الآن ؟ وماذا كان من أمرهم وماذا سيكون !

كل هذه أسئلة تصعب الإجابة عليها على وجه التحقيق ، فنحن لا نعرف عنهم إلا ماورد في القرآن ، وفي بعض الأثر الصحيح .

والقرآن يذكر في هذا الموضع ماحكاه من قول ذى القرنين : « فإذا جاء وعد ربى جعله دكاء ، وكان وعد ربى حقا »

وهذا النص لا يحدد زمانا . ووعد الله بمعنى وعده بدك السد ربما يكون قد جاء منذ أن هجم التتار ، وانساحوا فى الأرض ، ودمروا الممالك تدميرا .

وفى موضع آخر فى سورة الأنبياء : « حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون . واقترب الوعد الحق ... »

وهذا النص كذلك لا يحدد زمانا معينا لخروج يأجوج ومأجوج فاقتراب الوعد الحق بمعنى اقتراب الساعة قد وقع منذ زمن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فجاء فى القرآن : « اقتربت الساعة وانشق القمر » والزمان فى الحساب الإلهى غيره فى حساب البشر . فقد تمر بين اقتراب الساعة ووقوعها ملايين السنين أو القرون ، يراها البشر طويلة مديدة ، وهى عند الله ومضة قصيرة .

وإذن فمن الجائز أن يكون السد قد فتح فى الفترة مابين : « اقتربت الساعة » ويومنا هذا . وتكون غارات المغول والتتار التى اجتاحت الشرق هى انسياح يأجوج ومأجوج .

وهناك حديث صحيح رواه الإمام أحمد عن سفيان الثورى عن عروة ، عن زينب بنت أبى سلمة ، عن حبيبة بنت أم حبيبة بنت أبى سفيان ، عن أمها حبيبة ، عن زينب بنت جحش ـ زوج النبى صلى الله عليه وسلم ـ قالت : استيقظ الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من نومه وهو محمر الوجه وهو يقول : « ويل للعرب من شر قد اقترب . فتح اليوم من ردم يأجوج

ومأجوج مثل هذا » وحلق (بإصبعيه السبابة والإبهام) . قلت : يارسول الله أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : « نعم إذا كثر الخبيث » .

وقد كانت هـذه الرؤيا منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا ونصف قرن . وقد وقعت غارات التتار بعدها ، ودمرت ملك العرب بتدمير الخلافة العباسية على يد هولاكو فى خلافة المستعصم آخر ملوك العباسيين . وقد يكون هـذا تعبير رؤيا الرسول — صلى الله عليه وسلم — وعلم ذلك عند الله . وكل مانقوله ترجيح لا يقين .

* * *

ثم نعود إلى سياق السورة . فنجده يعقب على ذكر ذى القرنين للوعد الحق بمشهد من مشاهد القيامة .

« وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض ، ونفخ فى الصور فجمعناهم جمعا ؛ وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا ، الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى ، وكانوا لا يستطيعون سمعا » .

وهو مشهد يرسم حركة الجموع البشرية من كل لون وجنس وأرض . ومن كل جيل وزمان وعصر ، مبعوثين منشرين . يختلطون ويضطربون فى غير نظام وفى غير انتباه ، تتدافع جموعهم تدافع الموج وتختلط اختلاط الموج . . ثم إذا نفخة التجمع والنظام : « ونفخ فى الصور[1] فجمعناهم جمعا » فإذا هم فى الصف فى نظام !

ثم إذا الكافرون الذين أعرضوا عن ذكر الله حتى لكأن على عيونهم غطاء ، ولكأن فى أسماعهم صمما . . إذا بهؤلاء تعرض عليهم جهنم فلا يعرضون عنها كما كانوا يعرضون عن ذكر الله . فما يستطيعون اليوم إعراضا . لقد نزع الغطاء عن عيونهم نزعا فرأوا عاقبة الإعراض والعمى جزاء وفاقا !

والتعبير ينسق بين الإعراض والعرض متقابلين فى المشهد ، متقابلين فى الحركة على طريقة التناسق الفنى فى القرآن .

---

(١) البوق.

ويعقب على هذا التقابل بالتهكم اللاذع والسخرية المريرة :

« أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادى من دونى أولياء . إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا » ..

أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا مخلوقات الله المستعبدة له أنصارا لهم من دونه ، ينصرونهم منه ويدفعون عنهم سلطانه ؟ إذن فليلقوا عاقبة هذا الحسبان : « إنا أعتدنا[1] جهنم للكافرين نزلا » . . ويا له من نزل مهيأ للاستقبال ، لا يحتاج إلى جهد ولا انتظار . فهو حاضر ينتظر النزلاء الكفار !

* * *

ثم تختم السورة بالإيقاعات الأخيرة ، تلخص خطوطها الكثيرة ، وتجمع إيقاعاتها المتفرقة :

فأما الإيقاع الأول فهو الإيقاع حول القيم والموازين كما هى فى عرف الضالين ، وكما هى على وجه اليقين .. قيم الأعمال وقيم الأشخاص ..

« قل : هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا . الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ؟ أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا » .

« قل : هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا » الذين لا يوجد من هم أشد منهم خسرانا ؟ « الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا » فلم يؤد بهم إلى الهدى ، ولم ينته بهم إلى ثمرة أو غاية : « وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » لأنهم من الغفلة بحيث لا يشعرون بضلال سعيهم وذهابه سدى ، فهم ماضون فى هذا السعى الخائب الضال ، ينفقون حياتهم فيه هدرا . .

قل هل ننبئكم من هم هؤلاء ؟

وعندما يبلغ من استثارة التطلع والانتظار إلى هذا الحد يكشف عنهم فإذا هم :

« أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم » ..

---

(١) أحضرنا وأعددنا .

وأصل الحبوط هو انتفاخ بطن الدابة حين تتغذى بنوع سام من الكلأ ثم تلقى حتفها .. وهو أنسب شيء لوصف الأعمال . . إنها تنتفخ وأصحابها يظنونها صالحة ناجحة رابحة . . ثم تنتهى إلى البوار !

« أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم » . . « فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا » . .

فهم مهملون ، لا قيمة لهم ولا وزن فى ميزان القيم الصحيحة « يوم القيامة » . ولهم بعد ذلك جزاؤهم :

« ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتى ورسلى هزوا »

ويتم التعاون فى المشهد بعرض كفة المؤمنين فى الميزان وقيمتهم :

« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا . خالدين فيها لا يبغون عنها حولا » . .

وهذا النزل فى جنات الفردوس فى مقابل ذلك النزل فى نار جهنم . وشتان شتان !

ثم هذه اللفتة الدقيقة العميقة إلى طبيعة النفس البشرية وإحساسها بالمتاع فى قوله : « لا يبغون عنها حولا » .. وهى تحتاج منا إلى وقفة بإزاء ما فيها من عمق ودقة . .

إنهم خالدون فى جنات الفردوس . . ولكن النفس البشرية حوّل قلب . تمل الاطراد ، وتسأم البقاء على حال واحدة أو مكان واحد ؛ وإذا اطمأنت على النعيم من التغير والنفاد فقدت حرصها عليه . وإذا مضى على وتيرة واحدة فقد تسأمه . بل قد تنتهى إلى الضيق به ؛ والرغبة فى الفرار منه !

هذه هى الفطرة التى فطر عليها الإنسان لحكمة عليا تناسب خلافته للأرض ، ودوره فى هذه الخلافة . فهذا الدور يقتضى تحوير الحياة وتطويرها حتى تبلغ الكمال المقدر لها فى علم الله . ومن ثم ركز فى الفطرة البشرية حب التغير والتبديل ؛ وحب الكشف والاستطلاع ، وحب الانتقال من حال إلى حال ، ومن مكان إلى مكان ، ومن مشهد إلى مشهد ، ومن نظام إلى نظام . . وذلك كى يندفع الإنسان فى طريقه ، يغير فى واقع الحياة ، ويكشف عن مجاهل الأرض ، ويبدع فى نظم المجتمع وفى أشكال المادة .. ومن وراء التغير

والـكشف والإبداع ترتقى الحياة وتتطور ؛ وتصل شيئاً فشيئاً إلى الـكمال القدر لها فى علم الله.

نعم إنه مركوز فى الفطرة كذلك ألفة القديم ، والتعلق بالمألوف ، والمحافظة على العادة . ولـكن ذلك كله بدرجة لاتشل عملية التطور والإبداع ، ولاتعوق الحياة عن الرقى والارتفاع. ولا تنتهى بالأفـكار والأوضاع إلى الجمود والركود . إنما هى المقاومة التى تضمن التوازن مع الاندفاع . وكلما اختل التوازن فغلب الجمود فى بيئة من البيئات انبعثت الثورة التى تدفع بالعجلة دفعة قوية قد تتجاوز حدود الاعتدال . وخير الفترات هى فترات التعادل بين قوتى الدفع والجذب ، والتوازن بين الدوافع والضوابط فى جهاز الحياة .

فأما إذا غلب الركود والجمود . فهو الإعلان بانحسار دوافع الحياة ، وهو الإيذان بالموت فى حياة الأفراد والجماعات سواء .

هذه هى الفطرة المناسبة لخلافة الإنسان فى الأرض . . فأما فى الجنـة وهى دار الـكمال المطلق .. فإن هذه الفطرة لاتقابلها وظيفة . ولو بقيت النفس بفطرة الأرض ، وعاشت فى هذا النعيم القيم الذى لا تخشى عليه النفاد ، ولا تتحول هى عنه ، ولا يتحول هو عنها لانقلب النعيم جحيما لهذه النفس بعد فترة من الزمان ؛ ولأصبحت الجنـة سجناً لنزلائها يودون لو يغادرونه فترة ، ولو إلى الجحيم ، ليرضوا نزعة التغيير والتبديل !

ولـكن بارىء هذه النفس ــ وهو أعلم بها ــ يحول رغباتها ، فلا تعود تبغى التحول عن الجنة ، وذلك فى مقابل الخلود الذى لا تحول له ولا نفاد !

* * *

وأما الإيقاع الثانى فيصور العـلم البشرى المحدود بالقياس إلى العلم الإلهى الذى ليست له حدود ؛ ويقربه إلى تصور البشر القاصر بمثال محسوس على طريقة القرآن فى التعبير بالتصوير .

« قل : لو كان البحر مدادا لـكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ، ولو جئنا بمثله مددا » . .

والبحر أوسع وأغزر ما يعرفه البشر . والبشر يكتبون بالمداد كل ما يكتبون ؛ وكل ما يسجلون به علمهم الذى يعتقدون أنه غزير !

فالسياق يعرض لهم البحر بسعته وغزارة فى صورة مداد يكتبون به كلمات الله الدالة على علمه ؛ فإذا البحر ينفد وكلمات الله لا تنفد . ثم إذا هو يمدهم ببحر آخر مثله ، ثم إذا البحر الآخر ينفد كذلك وكلمات الله تنتظر المداد !

وبهذا التصوير المحسوس والحركة المجسمة يقرب إلى التصور البشرى المحدود معنى غير المحدود ، ونسبة المحدود إليه مهما عظم واتسع .

والمعنى الكلى المجرد يظل حائراً فى التصور البشرى ومائعاً حتى يتمثل فى صورة محسوسة. ومهما أوتى العقل البشرى من القدرة على التجريد فإنه يظل فى حاجة إلى تمثل المعنى المجرد فى صور وأشكال وخصائص ونماذج . . ذلك شأنه مع المعانى المجردة التى تمثل المحدود ؟ فكيف بغير المحدود ؟

لذلك يضرب القرآن الأمثال للناس ؛ ويقرب إلى حسهم معانيه الكبرى بوضعها فى صور ومشاهد ، ومحسوسات ذات مقومات وخصائص وأشكال على مثال هذا المثال .

والبحر فى هذا المثال يمثل علم الإنسان الذى يظنه واسعا غزيرا . وهو ـ على سعته وغزارته ـ محدود . وكلمات الله تمثل العلم الإلهى الذى لا حدود له ، والذى لا يدرك البشر نهايته ؛ بل لا يستطيعون تلقيه وتسجيله . فضلا على محاكاته .

ولقد يدرك البشر الغرور بما يكشفونه من أسرار فى أنفسهم وفى الآفاق ، فتأخذهم نشوة الظفر العلمى ، فيحسبون أنهم علموا كل شىء ، أو أنهم فى الطريق !

ولكن المجهول يواجههم بآفاقه المترامية التى لا حد لها ، فإذا هم ما يزالون على خطوات من الشاطىء ، والخضم أمامهم أبعد من الأفق الذى تدركه أبصارهم !

إن ما يطيق الإنسان تلقيه وتسجيله من علم الله ضئيل قليل ، لأنه يمثل نسبة المحدود إلى غير المحدود .

فليعلم الإنسان ما يعلم ؛ وليكشف من أسرار هذا الوجود ما يكشف .. ولكن ليطامن من غروره العلمى ، فسيظل أقصى ما يبلغه علمه أن يكون البحر مدادا فى يده . وسينفد البحر وكلمات الله لم تنفد ؛ ولو أمده الله ببحر مثله فسينتهى من بين يديه وكلمات الله ليست إلى نفاد..

* * *

وفى ظل هذا المشهد الذى يتضاءل فيه علم الإنسان ينطلق الإيقاع الثالث والأخير فى السورة ، فيرسم أعلى أفق للبشرية — وهو أفق الرسالة الكاملة الشاملة . فإذا هو قريب محدود بالقياس إلى الأفق الأعلى الذى تتقاصر دونه الأبصار ، وتتحسر دونه الأنظار :

« قل : إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ أنما إلهكم إله واحد . فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ، ولا يشرك بعبادة ربه أحدا » . .

إنه أفق الألوهية الأسمى . . فأين هنا آفاق النبوة ، وهى — على كل حال — آفاق بشرية ؟

« قل : إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى . . . » . . بشر يتلقى من ذلك الأفق الأسمى . بشر يستمد من ذلك المعين الذى لا ينضب . بشر لا يتجاوز الهدى الذى يتلقاه من مولاه . بشر يتعلم فيعلم . . فمن كان يتطلع إلى القرب من ذلك الجوار الأسنى ، فلينتفع بما يتعلم من الرسول الذى يتلقى ، وليأخذ بالوسيلة التى لا وسيلة سواها :

« فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا » . .

هذا هو جواز المرور إلى ذلك اللقاء الأثير .

* * *

وهكذا تختم السورة — التى بدأت بذكر الوحى والتوحيد — بتلك الإيقاعات المتدرجة فى العمق والشمول ، حتى تصل إلى نهايتها فيكون هذا الإيقاع الشامل العميق ، الذى ترتكز عليه سائر الأنغام فى لحن العقيدة الكبير . . .

سورة مريم مكية
وآياتها ٩٨ إلا آيتي ٥٨ و ٧١ فمدنيتان

بسم الله الرحمن الرحيم

« كهيعص * ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا * إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا * قَالَ : رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ، وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا * وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي ، وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا ، فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ، وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا .

« يَازَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا .

« قَالَ : رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا ، وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا * قَالَ: كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ : هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ، وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا * قَالَ . رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً . قَالَ : آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا .

« فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ ، فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا .

« يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ، وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا * وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً ، وَكَانَ تَقِيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا * وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ ، وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا » .

* * *

«وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا * فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا ، فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا ، فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * قَالَتْ : إِنِّي أَعُوذُ

بِالرَّحْمَانِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا * قَالَ: إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا * قَالَتْ : أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ ، وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ، وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا * قَالَ : كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ : هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ، وَ لِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا ، وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا .

« فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا * فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ، قَالَتْ: يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَـٰذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا * فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا * وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا * فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ، فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي : إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا، فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا .

« فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ، قَالُوا : يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا * يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ ، وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا * فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا : كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ؟ * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتُ ، وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَادُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا * وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ ، وَيَوْمَ أَمُوتُ، وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا .

« ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ : كُنْ . فَيَكُونُ * وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ، هَـٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ .

« فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ، فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ * أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَـٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ ، وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَ إِلَيْنَا يُرْجَعُونَ » .

يدور سياق هذه السورة على محور التوحيد ؛ ونفى الولد والشريك ؛ ويلم بقضية البعث القائمة على قضية التوحيد .. هـذا هو الموضوع الأساسى الذى تعالجه السورة ، كالشأن فى السور المكية غالبا .

والقصص هو مادة هذه السورة . فهى تبدأ بقصة زكريا ويحيى . فقصة مريم ومولد عيسى . فطرف من قصة إبراهيم مع أبيه .. ثم تعقبها إشارات إلى النبيين : إسحاق ويعقوب ، وموسى وهرون ، واسماعيل ، وإدريس . وآدم ونوح . ويستغرق هذا القصص حوالى ثلثى السورة . ويستهدف إثبات الوحدانية والبعث ، ونفى الولد والشريك ، وبيان منهج المهتدين ومنهج الضالين من أتباع النبيين .

ومن ثم بعض مشاهد القيامة ، وبعض الجدل مع المنكرين للبعث .

واستنكار للشرك ودعوى الولد ؛ وعرض لمصارع المشركين والمكذبين فى الدنيا وفى الآخرة . ، وكله يتناسق مع اتجاه القصص فى السورة ويتجمع حول محورها الأصيل .

وللسورة كلها جو خاص يظللها ويشيع فيها ، ويتمشى فى موضوعاتها ..

إن سياق هـذه السورة معرض للانفعالات والمشاعر القوية . . الانفعالات فى النفس البشرية ، وفى « نفس » الكون من حولها . فهذا الكون الذى نتصوره جمادا لا حس له يعرض فى السياق ذا نفس وحس ومشاعر وانفعالات ، تشارك فى رسم الجو العام للسورة . حيث نرى السماوات والأرض والجبال تغضب وتنفعل حتى لتكاد تنفطر وتنشق وتنهد استنكارا :

« أن دعوا للرحمان ولدا وما ينبغى للرحمان أن يتخذ ولدا » ..

أما الانفعالات فى النفس البشرية فتبدأ مع مفتتح السورة وتنتهى مع ختامها . والقصص الرئيسى فيهـا حافل بهـذه الانفعالات فى مواقفه العنيفة العميقة . وبخاصة فى قصة مريم وميلاد عيسى .

والظل الغالب فى الجو هو ظل الرحمة والرضى والاتصال . فهى تبدأ بذكر رحمة الله لعبده زكريا « ذكر رحمة ربك عبده زكريا » وهو يناجى ربه نجاء : « إذ نادى ربه نداء خفيـا » . . ويتكرر لفظ الرحمة ومعناها وظلها فى ثنايا السورة كثيرا . ويكثر فيها اسم « الرحمان » . ويصور النعيم الذى يلقاه المؤمنون به فى صورة ود : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمان ودا » ويذكر من نعمة الله على يحيى أن آتاه الله حنانا « وحنانا

من لدنا وزكاة وكان تقيا » . ومن نعمة الله على عيسى أن جعله برا بوالدته وديعا لطيفا : « وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا » . .

وإنك لتحس لمسات الرحمة الندية ودبيبها اللطيف فى الكلمات والعبارات والظلال . كما تحس انتفاضات الكون وارتجافاته لوقع كلمة الشرك التى لا تطيقها فطرته .. كذلك تحس أن للسورة إيقاعا موسيقيا خاصا . فحتى جرس ألفاظها وفواصلها فيه رخاء وفيه عمق : رضيا . سريا . حفيا . نجيا ... فأما المواضع التى تقتضى الشد والعنف ، فتجىء فيها الفاصلة مشددة دالا فى الغالب . مدّا . ضدّا . إدّا ، هدّا ، أو زايا : عزّا . أزّا .

وتنوع الإيقاع الموسيقى والفاصلة والقافية بتنوع الجو والموضوع يبدو جليا فى هذه السورة[1]. فهى تبدأ بقصة زكريا ويحى فتسير الفاصلة والقافية هكذا :

« ذكر رحمة ربك عبده زكريا . إذا نادى ربه نداء خفيا ... الخ»

وتليها قصة مريم وعيسى فتسير الفاصلة والقافية على النظام نفسه :

« واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا . فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا ... الخ »

إلى أن ينتهى القصص ، ويجىء التعقيب ، لتقرير حقيقة عيسى ابن مريم ، وللفصل فى قضية بنوته . فيختلف نظام الفواصل والقوافى .. تطول الفاصلة ، وتنتهى القافية بحرف الميم أو النون المستقر الساكن عند الوقف لا بالياء الممدودة الرخية . على النحو التالى .

« ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون . ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمرا فإنما يقول له : كن فيكون ... الخ » .

حتى إذا انتهى التقرير والفصل وعاد السياق إلى القصص عادت القافية الرخية المديدة :

« واذكر فى الكتاب ابراهيم إنه كان صديقا نبيا . إذ قال لأبيه: ياأبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا .. الخ » .

حتى إذا جاء ذكر المكذبين وما ينتظرهم من عذاب وانتقام ، تغير الإيقاع الموسيقى وجرس القافية :

---

(١) يراجع هذا الموضوع بتوسع فى فصل التناسق الفنى فى القرآن فى كتاب : التصوير الفنى فى القرآن من ص ٨٦ إلى ٩٦ من الطبعة الثالثة .

« قل: من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدا . حتى إذ رأوا مايوعدون إما العذاب ؛ وإما الساعة فسيعلمون من هو شر مكانا وأضعف جندا .. الخ » .

وفى موضع الاستنكار يشتد الجرس والنغم بتشديد الدال :

« وقالوا : اتخذ الرحمن ولدا . لقد جئتم شيئا إدا ، تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا ... الخ » .

وهكذا يسير الإيقاع الموسيقى فى السورة وفق المعنى والجو ؛ ويشارك فى إبقاء الظل الذى يتناسق مع المعنى فى ثنايا السورة ، وفق انتقالات السياق من جو إلى جو ومن معنى إلى معنى .

* * *

ويسير السياق مع موضوعات السورة فى أشواط ثلاثة :

الشوط الأول يتضمن قصة زكريا ويحيى ، وقصة مريم وعيسى . والتعقيب على هذه القصة بالفصل فى قضية عيسى التى كثر فيها الجدل ، واختلفت فيها أحزاب اليهود والنصارى .

والشوط الثانى يتضمن حلقة من قصة ابراهيم مع أبيه وقومه واعتزاله لملة الشرك وماعوضه الله من ذرية نسلت بعد ذلك أمة . ثم إشارات إلى قصص النبيين ، ومن اهتدى بهم ومن خلفهم من الغواة ؛ ومصير هؤلاء وهؤلاء . وينتهى بإعلان الربوبية الواحدة ، التى تعبد بلا شريك : « رب السماوات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته . هل تعلم له سميا ؟ »

والشوط الثالث والأخير يبدأ بالجدل حول قضية البعث ، ويستعرض بعض مشاهد القيامة. ويعرض صورة من استنكار الكون كله لدعوى الشرك ، وينتهى بمشهد مؤثر عميق من مصارع القرون ! « وكم أهلكنا قبلهم من قرن . هل تحس منهم من أحدا أو تسمع لهم ركزا » فنأخذ فى الدرس الأول :

* * *

« كاف . ها . يا . عين . صاد » ..

هذه الأحرف المتقطعة التى تبدأ بها بعض السور ، والتى اخترنا فى تفسيرها أنها نماذج من الحروف التى يتألف منها هذا القرآن ، فيجىء نسقا جديدا لا يستطيعه البشر مع

أنهم يملكون الحروف ويعرفون الكلمات ، ولكنهم يعجزون أن يصوغوا منها مثل ماتصوغه القدرة المبدعة لهذا القرآن .

وبعدها تبدأ القصة الأولى . قصة زكريا ويحي . والرحمة قوامها . والرحمه تظللها . ومن ثم يتقدمها ذكر الرحمة : « ذكر رحمة ربك عبده زكريا » ..

تبدأ القصة بمشهد الدعاء . دعاء زكريا لربه فى ضراعة وفى خفية :

« إذ نادى ربه نداء خفيا . قال : رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ، ولم أ كن بدعائك رب شقيا . وإنى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقرا ، فهب لى من لدنك وليا ، يرثنى ويرث من آل يعقوب ، واجعله رب رضيا » . .

إنه يناجى ربه بعيدا عن عيون الناس ، بعيدا عن أسماعهم . فى عزلة يخلص فيها لربه ، ويكشف له عما يثقل كاهله ويكرب صدره ويناديه فى قرب واتصال : « رب .. » بلا واسطة حتى ولا حرف النداء . وإن ربه ليسمع ويرى من غير دعاء ولا نداء ولكن المكروب يستريح إلى البث ، ويحتاج إلى الشكوى . والله الرحيم بعباده يعرف ذلك من فطرة البشر ، فيستحب لهم أن يدعوه وأن يبثوه ماتضيق به صدورهم . « وقال ربكم: ادعونى أستجب لكم » ليريحوا أعصابهم من العبء المرهق ، ولتطمئن قلوبهم إلى أنهم قد عهدوا بأعبائهم إلى من هو أقوى وأقدر ؛ وليستشعروا صلتهم بالجناب الذى لا يضام من يلجأ إليه ، ولا يخيب من يتوكل عليه .

وزكريا يشكو إلى ربه وهن العظم . وحين يهن العظم يكون الجسم كله قد وهن . فالعظم هو أصلب مافيه ، وهو قوامه الذى يقوم به ويتجمع عليه . ويشكو إليه اشتعال الرأس شيبا . والتعبير المصور يجعل الشيب كأنه نار تشتعل ويجعل الرأس كله كأنما تشمله هذه النار المشتعلة ، فلا يبقى فى الرأس المشتعل سواد .

ووهن العظم واشتعال الرأس شيبا كلاهما كناية عن الشيخوخة وضعفها الذى يعانيه زكريا ويشكوه إلى ربه ، وهو يعرض عليه حاله ورجاءه ..

ثم يعقب عليه بقوله : «ولم أ كن بدعائك رب شقيا» معترفا بأن الله قد عوده أن يستجيب إليه إذا دعاه ، فلم يشق مع دعائه لربه ، وهو فى فتوته وقوته . فما أحوجه الآن فى هرمه وكبرته أن يستجيب الله له ويتم نعمته عليه .

فإذا صور حاله ، وقدم رجاءه ، ذكر مايخشاه ، وعرض مايطلبه .. إنه يخشى

من بعده . يخشاهم ألا يقوموا على تراثه بما يرضاه . وتراثه هو دعوته التي يقوم عليها ـ وهو أحد أنبياء بني إسرائيل البارزين ـ وأهله الذين يرعاهم ـ ومنهم مريم التي كان قيما عليها وهي تخدم المحراب الذي يتولاه ـ وماله الذي يحسن تدبيره وإنفاقه في وجهه . وهو يخشى الموالي من ورائه على هذا التراث كله ، ويخشى ألا يسيروا فيه سيرته . . قيل لأنه يعهدهم غير صالحين للقيام على ذلك التراث ..

« وكانت امرأتي عاقرا » . . لم تعقب فلم يكن له من ذريته من يملك تربيته وإعداده لوراثته وخلافته .

ذلك ما يخشاه . فأما ما يطلبه فهو الولي الصالح ، الذي يحسن الوراثة ، ويحسن القيام على تراثه وتراث النبوة من آبائه وأجداده : « فهب لي من لدنك وليا يرثني ويرث من آل يعقوب » .

ولا ينسى زكريا ، النبي الصالح ، أن يصور أمله في ذلك الوريث الذي يرجوه في كبرته : « واجعله رب رضيا » لا جبارا ولا غليظا ، ولا متبطرا ولا طموعا . ولفظة « رضيّ » تلقى هذه الظلال . فالرضى الذي يرضى ويرضى . وينشر ظلال الرضى فيما حوله ومن حوله .

ذلك دعاء زكريا لربه في ضراعة وخفية . والألفاظ والمعاني والظلال والإيقاع الرخي . كلها تشارك في تصوير مشهد الدعاء .

ثم ترتسم لحظة الاستجابة في رعاية وعطف ورضى .. فالرب ينادي عبده من الملأ الأعلى: « يا زكريا » . . ويعجل له البشرى : « إنا نبشرك بغلام » ويغمره بالعطف فيختار له اسم الغلام الذي بشره به : « اسمه يحيى » . وهو اسم فذ غير مسبوق : « لم نجعل له من قبل سميا » . .

إنه فيض الكرم الإلهي يغدقه على عبده الذي دعاه في ضراعة ، وناجاه في خفية ، وكشف له عما يخشى ، وتوجه إليه فيما يرجو . والذي دفعه إلى دعاء ربه خوفه الموالي من بعده على تراث العقيدة وعلى تدبير المال والقيام على الأهل بما يرضى الله . وعلم الله ذلك من نيته فأغدق عليه وأرضاه .

وكأنما أفاق زكريا من غمرة الرغبة وحرارة الرجاء ، على هذه الاستجابة القريبة للدعاء. فإذا هو يواجه الواقع . . إنه رجل شيخ بلغ من الكبر عتيا ، وهن عظمه واشتعل شيبه ،

وامرأته عاقر لم تلد له فى فتوته وصباه : فكيف ياترى سيكون له غلام ؟ إنه ليريد أن يطمئن، ويعرف الوسيلة التى يرزقه الله بها هذا الغلام : « قال : رب أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقراً وقد بلغت من الكبر عتيا ؟ »

إنه يواجه الواقع ، ويواجه معه وعد الله . وإنه ليثق بالوعد ، ولكنه يريد أن يعرف كيف يكون تحقيقه مع ذلك الواقع الذى يواجهه ليطمئن قلبه . وهى حالة نفسية طبيعية . فى مثل موقف زكريا النبى الصالح . الإنسان ! الذى لا يملك أن يغفل الواقع ، فيشتاق أن يعرف كيف يغيره الله !

هنا يأتيه الجواب عن سؤاله : أن هذا هين على الله سهل . ويذكره بمثل قريب فى نفسه : فى خلقته هو وإيجاده بعد أن لم يكن . وهومثل لكل حى ، ولكل شىء فى هذا الوجود :

« قال : كذلك قال ربك : هو على هين . وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا »

وليس فى الخلق هين وصعب على الله . ووسيلة الخلق للصغير والكبير ، وللحقير والجليل واحدة : كن . فيكون .

والله هو الذى جعل العاقر لا تلد . وجعل الشيخ الفانى لا ينسل ؛ وهو قادر على إصلاح العاقر وإزالة سبب العقم ، وتجديد قوة الإخصاب فى الرجل . وهو أهون فى اعتبار الناس من إنشاء الحياة ابتداء . وإن كان كل شىء هينا على القدرة : إعادة أو إنشاء .

ومع ذلك فإن لهفة زكريا على الطمأنينة تدفع به أن يطلب آية وعلامة على تحقق البشرى فعلا . فأعطاه الله آية تناسب الجو النفسى الذى كان فيه الدعاء وكانت فيه الاستجابة . . ويؤدى بها حق الشكر لله الذى وهبه على الكبر غلاما . . وذلك أن ينقطع عن دنيا الناس ويحيا مع الله ثلاث ليال ينطلق لسانه إذا سبح ربه ، ويحتبس إذا كلم الناس ، وهو سوى معافى فى جوارحه لم يصب لسانه عوج ولا آفة .

« قال : آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا » . .

وكان ذلك :

« فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا » . .

ذلك ليعيشوا فى مثل الجو الذى يعيش فيه ، وليشكروا الله معه على ما أنعم عليه وعليهم من بعده .

* * *

ويترك السياق زكريا فى صمته وتسبيحه ، ويسدل عليه الستار فى هذا المشهد ويطوى صفحته ليفتح الصفحة الجديدة على يحي ؛ يناديه ربه من الملأ الأعلى :

« يا يحي خذ الكتاب بقوة . . . » .

لقد ولد يحي وترعرع وصار صبيا ، فى الفجوة التى تركها السياق بين المشهدين . على طريقة القرآن فى عرضه الفنى للقصص ، ليبرز أهم الحلقات والمشاهد ، وأشدها حيوية وحركة .

وهو يبدأ بهذا النداء العلوى ليحي قبل أن يتحدث عنه بكلمة . لأن مشهد النداء مشهد رائع عظيم ، يدل على مكانة يحي ، وعلى استجابة الله لزكريا ، فى أن يجعل له من ذريته وليا ، يحسن الخلافة بعده فى العقيدة وفى العشيرة . فها هو ذا أول موقف ليحي هو موقف انتدابه ليحمل الأمانة الكبرى . « يا يحي خذ الكتاب بقوة » . . والكتاب هو التوراة كتاب بنى إسرائيل من بعد موسى ، وعليه كان يقوم أنبياؤهم يعلمون به ويحكمون . وقد ورث يحي أباه زكريا ، ونودى ليحمل العبء وينهض بالأمانة فى قوة وعزم ، لا يضعف ولا يتهاون ولا يتراجع عن تكاليف الوراثة . .

وبعد النداء يكشف السياق عما زود به يحي لينهض بالتبعة الكبرى :

« وآتيناه الحكم صبيا ، وحنانا من لدنا وزكاة ، وكان تقيا » . .

فهذه هى المؤهلات التى زوده الله بها وأعده وأعانه على احتمال ما كلفه إياه عند ما ناداه . .

آتاه الحكمة صبيا . فكان فذا فى زاده ، كما كان فذا فى اسمه وفى ميلاده . فالحكمة تأتى متأخرة . ولكن يحي قد زود بها صبيا .

وآتاه الحنان هبة لدنية لا يتكلفه ولا يتعلمه ؛ إنما هو مطبوع عليه ومطبوع به . والحنان صفة ضرورية للنبى المكلف رعاية القلوب والنفوس ، وتألفها واجتذابها إلى الخير فى رفق .

وآتاه الطهارة والعفة ونظافة القلب والطبع ؛ يواجه بها أدران القلوب ودنس النفوس ، فيطهرها ويزكيها .

« وكان تقيا » موصولا بالله ، متحرجا معه ، مراقباً له ، يخشاه ويستشعر رقابته عليه فى سره ونجواه .

ذلك هو الزاد الذى آتاه الله يحي فى صباه ، ليخلف أباه كما توجه إلى ربه وناداه نداء خفيا . فاستجاب له ربه ووهب له غلاما زكيا . .

وهنا يسدل الستار على يحيى كما أسدل من قبل على زكريا . وقد رسم الخط الرئيسى فى حياته ، وفى منهجه ، وفى اتجاهه. وبرزت العبرة من القصة فى دعاء زكريا واستجابة ربه له، وفى نداء يحيى وما زوده الله به . ولم يعد فى تفصيلات القصة بعد ذلك ما يزيد شيئا فى عبرتها ومغزاها . .

* * *

والآن فإلى قصة أعجب من قصة ميلاد يحيى . إنها قصة ميلاد عيسى . وقد تدرج السياق من القصة الأولى ووجه العجب فيها هو ولادة العاقر من بعلها الشيخ ، إلى الثانية ووجه العجب فيها هو ولادة العذراء من غير بعل ! وهى أعجب وأغرب .

وإذا نحن تجاوزنا حادث خلق الإنسان أصلا وإنشائه على هذه الصورة ، فإن حادث ولادة عيسى ابن مريم يكون أعجب ما شهدته البشرية فى تاريخها كله ، ويكون حادثا فذا لا نظير له من قبله ولا من بعده .

والبشرية لم تشهد خلق نفسها وهو الحادث العجيب الضخم فى تاريخها ! لم تشهد خلق الإنسان الأول من غير أب وأم ، وقد مضت القرون بعد ذلك الحادث ؛ فشاءت الحكمة الإلهية أن تبرز العجيبة الثانية فى مولد عيسى من غير أب ، على غير السنة التى جرت منذ وجد الإنسان على هذه الأرض ، ليشهدها البشر ؛ ثم تظل فى سجل الحياة الإنسانية بارزة فذة تتلفت إليها الأجيال ، إن عز عليها أن تتلفت إلى العجيبة الأولى التى لم يشهدها إنسان !

لقد جرت بسنــة الله التى وضعها لامتداد الحياة بالتناسل من ذكر وأنثى فى جميع الفصائل والأنواع بلا استثناء ، حتى المخلوقات التى لا يوجد فيها ذكر وأنثى متميزان تتجمع فى الفرد الواحد منها خلايا التذكير والتأنيث . . جرت هذه السنة أحقاباً طويلة حتى استقر فى تصور البشر أن هذه الطريقة الوحيدة ، ونسوا الحادث الأول . حادث وجود الإنسان لأنه خارج عن القياس . فأراد الله أن يضرب لهم مثل عيسى ابن مريم — عليه السلام — ليذكرهم بحرية القدرة وطلاقة الإرادة ، وأنها لا تحتبس داخل النواميس التى تختارها . ولم يتــكرر حادث عيسى لأن الأصل هو أن تجرى السنــة التى وضعها الله ، وأن ينفذ الناموس الذى اختاره . وهذه الحادثة الواحدة تــكفى لتبقى أمام أنظار البشرية معلما بارزا على حرية المشيئة ، وعدم احتباسها داخل حدود النواميس « ولنجعله آية للناس » .

ونظرا لغرابة الحادث وضخامته فقد عز على فرق من الناس أن تتصوره على طبيعته وأن تدرك الحكمة فى إبرازه، فجعلت تضفى على عيسى ابن مريم ــ عليه السلام ــ صفات ألوهية، وتصوغ حول مولده الخرافات والأساطير، وتعكس الحكمة من خلقه على هذا النحو العجيب، ــ وهى إثبات القدرة الإلهية التى لا تتقيد ــ تعكسها فتشوه عقيدة التوحيد.

والقرآن فى هذه السورة يقص كيف وقعت هذه العجيبة، ويبرز دلالتها الحقيقية، وينفى تلك الخرافات والأساطير.

والسياق يخرج القصة فى مشاهد مثيرة، حافلة بالعواطف والانفعالات، التى تهز من يقرؤها هزا كأنما هو يشهدها:

* * *

« واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا، فاتخذت من دونهم حجابا. فأرسلنا إليها روحنا، فتمثل لها بشرا سويا. قالت: إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا. قال: إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا. قالت: أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا؟ قال: كذلكِ قال ربكِ هو على هين، ولنجعله آية للناس ورحمة منا. وكان أمرا مقضيا » ..

فهذا هو المشهد الأول ــ فتاة عذراء. قديسة، وهبتها أمها وهى فى بطنها لخدمة المعبد. لا يعرف عنها أحد إلا الطهر والعفة حتى لتنسب إلى هارون أبى سدنة المعبد الإسرائيلى المتطهرين ــ ولا يعرف عن أسرتها إلا الطيبة والصلاح من قديم.

ها هى ذى تخلو إلى نفسها لشأن من شؤونها التى تقتضى التوارى من أهلها والاحتجاب عن أنظارهم .. ولا يحدد السياق هذا الشأن، ربما لأنه شأن خاص جدا من خصوصيات الفتاة ..

وها هى ذى فى خلوتها، مطمئنة إلى انفرادها. ولكن ها هى ذى تفاجأ مفاجأة عنيفة.. إنه رجل مكتمل سوى: « فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا » .. وهاهى ذى تنتفض انتفاضة العذراء المذعورة يفجؤها رجل فى خلوتها، فتلجأ إلى الله تستعيذ به وتستنجد وتستثير مشاعر التقوى فى نفس الرجل، والخوف من الله والتحرج من رقابته فى هذا المكان

الخالى : « قالت : إنى أعوذ بالرحمان منك إن كنت تقيا » فالتقىّ ينتفض وجدانه عند ذكر الرحمان ، ويرجع عن دفعة الشهوة ونزغ الشيطان . .

وهنا يتمثل الخيال تلك العذراء الطيبة البريئة ذات التربية الصالحة ، التى نشأت فى وسط صالح ، وكفلها زكريا ، بعدأن نذرت لله جنينا . . وهذه هى الهزة الأولى . .

« قال : إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا » . . وليتمثل الخيال مقدار الفزع والخجل . وهذا الرجل السوى ـ الذى لم تثق بعد بأنه رسول ربها ـ فقد تكون حيلة فاتك يستغل طيبتها ـ يصارحها بما يخدش سمع الفتاة الخجول ، وهو أنه يريد أن يهب لها غلاما ، وهما فى خلوة ـ وهذه هى الهزة الثانية .

ثم تدركها شجاعة الأنثى المهددة فى عرضها ! فتسأل فى صراحة : كيف ؟

« قالت : أنى يكون لى غلام ، ولم يمسسنى بشر ، ولم أك بغيا ؟ » . . هكذا فى صراحة . وبالألفاظ المكشوفة . فهى والرجل فى خلوة . والغرض من مباغتته لها قد صار مكشوفا . فما تعرف هى بعد كيف يهب لها غلاما ؟ وما يخفف من روع الموقف أن يقول لها : « إنما أنارسول ربك » ولا أنه مرسل ليهب لها غلاما طاهرا غير مدنس المولد ، ولا مدنس السيرة ، ليطمئن بالها . لا . فالحياء هنا لا يجدى ، والصراحة أولى . . كيف ؟ وهى عذراء لم يمسسها بشر ، وما هى بغى فتقبل الفعلة التى تجىء منها بغلام !

ويبدو من سؤالها أنها لم تكن تتصور حتى اللحظة وسيلة أخرى لأن يهبها غلاما إلا الوسيلة المعهودة بين الذكر والأنثى . وهذا هو الطبيعى بحكم التصور البشرى .

« قال : كذلك قال ربك : هو على هين . ولنجعله آية للناس ، ورحمة منا » .

فهذا الأمر الخارق الذى لا تتصور مريم وقوعه ، هين على الله . فأمام القدرة التى تقول للشىء كن فيكون ، كل شىء هين ، سواء جرت به السنة المعهودة أو جرت بغيره . والروح يخبرها بأن ربها يخبّرها بأن هذا هين عليه . وأنه أراد أن يجعل هـذا الحادث العجيب آية للناس ، وعلامة على وجوده وقدرته وحرية إرادته . ورحمة لبنى إسرائيل أولا وللبشرية جميعا ، بإبراز هذا الحادث الذى يقودهم إلى معرفة الله وعبادته وابتغاء رضاه .

بذلك انتهى الحوار بين الروح الأمين ومريم العذراء.. ولا يذكر السياق ماذا كان بعد الحوار، فهنا فجوة من فجوات العرض الفنى للقصة . ولكنه يذكر أن ما أخبرها به من أن يكون لها غلام وهى عذراء لم يمسسها بشر، وأن يكون هذا الغلام آية للناس ورحمة من الله . أن هذا قد انتهى أمره ، وتحقق وقوعه : « وكان أمرا مقضيا » كيف ؟ لا يذكر هنا عن ذلك شيئا (١).

ثم تمضى القصة فى مشهد جديد من مشاهدها ؛ فتعرض هذه العذراء الحائرة فى موقف آخر أشد هولا :

« فحملته فانتبذت به مكانا قصيا . فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة ؛ قالت : ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا » . .

وهذه هى الهزة الثالثة ..

إن السياق لا يذكر كيف حملته ولا كم حملته . هل كان حملا عاديا كما تحمل النساء وتكون النفخة قد بعثت الحياة والنشاط فى البويضة فإذا هى علقة فمضغة فعظام ثم تكسى العظام باللحم ويستكمل الجنين أيامه المعهودة ؟ إن هذا جائز . فبويضة المرأة تبدأ بعد التلقيح فى النشاط والنمو حتى تستكمل تسعة أشهر قمرية، والنفخة تكون قد أدت دور التلقيح فسارت البويضة سيرتها الطبيعية .. كما أنه من الجائز فى مثل هذه الحالة الخاصة أن لا تسير البويضة بعد النفخة سيرة عادية ، فتختصر المراحل اختصارا ؛ ويعقبها تكون الجنين ونموه واكتماله فى فترة وجيزة .. ليس فى النص مايدل على إحدى الحالتين . فلا نجرى طويلا وراء تحقيق القضية التى لا سند لنا فيها .. فلنشهد مريم تنتبذ مكاناً قصيا عن أهلها، فى موقف أشد هولا من موقفها

---

(١) جاء فى سورة التحريم : « ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا » . فهل كلمة «روحنا» التى فى سورة مريم هى نفسها التى فى سورة التحريم ؟ وهل مدلولها واحد ؟ . . نحن نميل إلى أنها ذات مدلولين : فهى هنا فى السورة تعنى جبريل الروح الأمين وهو رسول الله إلى مريم . أما فى التحريم فتعنى الروح الذى نفخ الله منه فى آدم فإذا هو إنسان ونفخ منه فى فرج مريم فإذا البويضة حية مستعدة للنمو: فهى النفخة الإلهية التى تمنح الحياة وتمنح معها الخصائص المرافقة لنوع هذه الحياة . وهى فى الإنسان الاستعدادات التى تصله بالملأ الأعلى وتهبه الحس الإنسانى والتفكير والمشاعر والإلهامات . ونفسر حالة مريم بأن جبريل وهو الروح الأمين كان حاملا وموصلا لنفخة الروح العلوية من الله .. ثم نعود فنقول : إننا لا ندرك شيئا لا عن ماهية الروح بمعنى جبريل ، ولا عن ماهية الروح بالمعنى الآخر . فكله غيب . إنما نحن نستلهم السياق فى السورتين فنجد أن مدلول الروح هنا غيره هناك .

الذى أسلفنا . فلئن كانت فى الموقف الأول تواجه الحصانة والتربية والأخلاق بينها وبين نفسها ، فهى هنا وشيكة أن تواجه المجتمع بالفضيحة . ثم هى تواجه الآلام الجسدية بجانب الآلام النفسية . تواجه المخاض الذى « أجاءها» إجاءة إلى جذع النخلة ، واضطرها اضطرارا إلى الاستناد عليها . وهى وحيدة فريدة ، تعانى حيرة العذراء فى أول مخاض ، ولا علم لهـا بشىء ، ولا معين لها فى شىء .. فإذا هى قالت : « ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا » . فإننا لنكاد نرى ملامحها ، ونحس اضطراب خواطرها ، ونلمس مواقع الألم فيها . وهى تتمنى لو كانت « نسيا » : تلك الخرقة التى تتخذ لدم الحيض ثم تلقى بعد ذلك وتنسى !

وفى حدة الألم وغمرة الهول تقع المفاجأة الكبرى :

« فناداها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا . وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا . فكلى واشربى وقرى عينا ، فإما ترين من البشر أحدا فقولى : إنى نذرت للرحمان صوما فلن أكلم اليوم إنسيا » ..

يالله ! طفل وله اللحظة يناديها من تحتها . يطمئن قلبها ويصلها بربها ، ويرشدها إلى طعامها وشرابها . ويدلها على حجتها وبرهانها !

لا تحزنى .. « قد جعل ربك تحتك سريا » فلم ينسك ولم يتركك ، بل أجرى لك تحت قدميك جدولا ساريا ــ الأرجح أنه جرى للحظته من ينبوع أو تدفق من مسيل ماء فى الجبل ــ وهذه النخلة التى تستندين إليها هزيها فتساقط عليك رطبا . فهذا طعام وذاك شراب . والطعام الحلو مناسب للنفساء . والرطب والتمر من أجود طعام النفساء . « فكلى واشربى » هنيئا . «وقرى عينا » واطمئنى قلبا . فأما إذا واجهت أحدا فأعلنيه بطريقة غير الكلام ، أنك نذرت للرحمان صوما عن حديث الناس وانقطعت إليه للعبادة . ولا تجيبى أحدا عن سؤال ..

ونحسبها قد دهشت طويلا ، وبهتت طويلا ، قبل أن تمد يدها إلى جذع النخلة تهزه ليساقط عليها رطبا جنيا .. ثم أفاقت فاطمأنت إلى أن الله لا يتركها . وإلى أن حجتها معها .. هذا الطفل الذى ينطق فى المهد .. فيكشف عن الخارقة التى جاءت به إليها ..

« فأتت بها قومها تحمله ... » .. فلنشهد هذا المشهد المثير :

إننا لنتصور الدهشة التى تعلو وجوه القوم ــ ويبدو أنهم أهل بيتها الأقربون فى نطاق ضيق محدود ــ وهم يرون ابنتهم الطاهرة العذراء الموهوبة للهيكل العابدة المنقطعة للعبادة . . يرونها تحمل طفلا !

« قالوا : يامريم لقد جئت شيئا فريا . يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء ، وما كانت أمك بغيا ! »

إن ألسنتهم لتنطلق بالتقريع والتأنيب : « يا مريم لقد جئت شيئا فريا » فظيعا مستنكرا. ثم يتحول السخط إلى تهكم مرير : « يا أخت هارون » النبى الذى تولى الهيكل هو وذريته من بعده والذى تنتسبين إليه بعبادتك وانقطاعك لخدمة الهيكل . فيا للمفارقة بين تلك النسبة التى تنتسبينها وذلك الفعل الذى تقارفينه ! « ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا » حتى تأتى بهذه الفعلة التى لا يأتيها إلا بنات آباء السوء والأمهات البغايا !

وتنفذ مريم وصية الطفل العجيب التى لقنها إياها :

« فأشارت إليه » .. فماذا نقول فى العجب والغيظ الذى ساورهم وهم يرون عذراء تواجههم بطفل ؛ ثم تتبجح فتسخر ممن يستنكرون فعلتها فتصمت وتشير لهم إلى الطفل ليسألوه عن سرها !

« قالوا : كيف نكلم من كان فى المهد صبيا ؟ » . .

ولكن ها هى ذى الخارقة العجيبة تقع مرة أخرى :

« قال : إنى عبد الله ، آتانى الكتاب ، وجعلنى نبيا ، وجعلنى مباركا أينما كنت ، وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا ، وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا ، والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا » .

وهكذا يعلن عيسى ــ عليه السلام ــ عبوديته لله . فليس هو ابنه كما تدعى فرقة . وليس هو إلها كما تدعى فرقة . وليس هو ثالث ثلاثة هم إله واحد وهم ثلاثة كما تدعى فرقة .. ويعلن أن الله جعله نبيا ، لا ولدا ولا شريكا . وبارك فيه ، وأوصاه بالصلاة والزكاة مدة حياته . والبر بوالدته والتواضع مع عشيرته . فله إذن حياة محدودة ذات أمد . وهو يموت ويبعث . وقد قدر الله له السلام والأمان والطمأنينة يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا . .

والنص صريح هنا في موت عيسى وبعثه . وهو لا يحتمل تأويلا فى هذه الحقيقة ولا جدالا .

* * *

ولا يزيد السياق القرآنى شيئا على هذا المشهد . لا يقول : كيف استقبل القوم هذه الخارقة . ولا ماذا كان بعدها من أمر مريم وابنها العجيب . ولا متى كانت نبوته التى أشار إليها وهو يقول :

« آتانى الكتاب وجعلنى نبيا » . . ذلك أن حادث ميلاد عيسى هو المقصود فى هذا الموضع . فحين يصل به السياق إلى ذلك المشهد الخارق يسدل الستار ليعقب بالغرض المقصود فى أنسب موضع من السياق ، بلهجة التقرير ، وإيقاع التقرير :

« ذلك عيسى ابن مريم . قول الحق الذى فيه يمترون . ما كان لله أن يتخذ من ولد . سبحانه . إذا قضى أمرا فإنما يقول له : كن فيكون . وإن الله ربى وربكم فاعبدوه . هذا صراط مستقيم » . .

ذلك عيسى ابن مريم ، لا ما يقوله المؤلهون له أو المتهمون لأمه فى مولده . . ذلك هو فى حقيقته وذلك واقع نشأته . ذلك هو يقول قول الحق الذى فيه يمترون ويشكون . يقولها لسانه ويقولها الحال فى قصته : « ما كان لله أن يتخذ من ولد » تعالى وتنزه فليس من شأنه أن يتخذ ولدا . والولد إنما يتخذه الفانون للامتداد ، ويتخذه الضعاف للنصرة . والله باق لا يخشى فناء ، قادر لا يحتاج معينا . والكائنات كلها توجد بكلمة كن . وإذا قضى أمرا فإنما يقول له : كن فيكون . . فما يريد تحقيقه يحققه بتوجه الإرادة لا بالولد والمعين . . وينتهى ما يقوله عيسى — عليه السلام — ويقوله حاله بإعلان ربوبية الله له وللناس ، ودعوته إلى عبادة الله الواحد بلا شريك : « وإن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم » .. فلا يبقى بعد شهادة عيسى وشهادة قصته مجال للأوهام والأساطير . . وهذا هو المقصود بذلك التعقيب فى لغة التقرير وإيقاع التقرير :

* * *

وبعد هذا التقرير يعرض اختلاف الفرق والأحزاب فى أمر عيسى فيبدو هذا الاختلاف مستنكرا نابيا فى ظل هذه الحقيقة الناصعة :

« فاختلف الأحزاب من بينهم » . .

ولقد جمع الإمبراطور الرومانى قسطنطين مجمعاً من الأساقفة ـ وهو أحد المجامع الثلاثة الشهيرة ـ بلغ عدد أعضائه ألفين ومئة وسبعين أسقفا فاختلفوا فى عيسى اختلافاً شديدا ، وقالت كل فرقة فيه قولا . . قال بعضهم : هو الله هبط إلى الأرض فأحيا من أحيا وأمات من أمات ثم صعد إلى السماء . وقال بعضهم : هو ابن الله ، وقال بعضهم : هو أحد الأقانيم الثلاثة : الأب والابن وروح القدس . وقال بعضهم : هو ثالث ثلاثة : الله إله وهو إله وأمه إله . وقال بعضهم : هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته . وقالت فرق أخرى أقوالا أخرى . ولم يجتمع على مقالة واحدة أكثر من ثلاث مئة وثمانية اتفقوا على قول . فمال إليه الإمبراطور ونصر أصحابه وطرد الآخرين وشرد المعارضين وبخاصة الموحدين .

ولما كانت العقائد المنحرفة قد قررتها مجامع شهدتها جموع الأساقفة فإن السياق هنا ينذر الكافرين الذين ينحرفون عن الإيمان بوحدانية الله ، ينذرهم بمشهد يوم عظيم تشهده جموع أكبر ، وترى ما يحل بالكافرين المنحرفين :

« فويل للكافرين من مشهد يوم عظيم . أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا ، لكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين . وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون » .

ويل لهم من ذلك المشهد فى يوم عظيم . بهذا التنكير للتفخيم والتهويل . المشهد الذى يشهده الثقلان : الإنس والجن ، وتشهده الملائكة ، فى حضرة الجبار الذى أشرك به الكفار .

ثم يأخذ السياق فى التهكم بهم وبإعراضهم عن دلائل الهدى فى الدنيا . وهم فى ذلك المشهد أسمع الناس وأبصر الناس ! :

« أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا ، لكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين » . .

فما أعجب حالهم ! . . لا يسمعون ولا يبصرون حين يكون السمع والبصر وسيلة للهدى والنجاة . وهم أسمع شىء وأبصر شىء يوم يكون السمع والبصر وسيلة للخزى ولإسماعهم ما يكرهون وتبصيرهم ما يتقون فى مشهد يوم عظيم !

« وأنذرهم يوم الحسرة » .. يوم تشتد الحسرات حتى لكأن اليوم ممحض للحسرة لا شىء فيه سواها ، فهى الغالبة على جوه ، البارزة فيه . أنذرهم هذا اليوم الذى لا تنفع فيه

الحسرات : « إذ قضى الأمر وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون » وكأنما ذلك اليوم موصول بعدم إيمانهم ، موصول بالغفلة التى هم فيها سادرون . .

أنذرهم ذلك اليوم الذى لا شك فيه ؛ فكل ما على الأرض ومن على الأرض عائد إلى الله ، عودة الميراث كله إلى الوارث الوحيد ! :

« إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون » .

« وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ : يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ؟ * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا * يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَانِ عَصِيًّا * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَانِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا * قَالَ : أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ ؟ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ، وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا * قَالَ : سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا * وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَأَدْعُو رَبِّي ، عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا .

« فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا * وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا .

« وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ ، إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا ، وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا * وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا * وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا .

« وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ، إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ ، وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ ، وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا .

« وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ ، إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا * وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا .

« أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ ، وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ

نُوحٍ ، وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ ، وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ، إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَانِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا * فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا * إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ، فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا * جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَانُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ ، إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا ، وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا * تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا .

« وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ ، وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا * رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ، هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ؟ » .

انتهت قصة ميلاد عيسى بكشف مافى أسطورة الولد من نكارة وكذب وضلال ؛ وهى التى يستند إليها بعض أهل الكتاب فى عقائدهم الفاسدة . وتليها فى السورة حلقة من قصة إبراهيم تكشف عما فى عقيدة الشرك من نكارة وكذب وضلال كذلك . وإبراهيم هو الذى ينتسب إليه العرب ، ويقول المشركون : إنهم سدنة البيت الذى بناه هو وإسماعيل .

وتبدو فى هذه الحلقة شخصية إبراهيم الرضى الحليم . . تبدو وداعته وحلمه فى ألفاظه وتعبيراته التى يحكى القرآن الكريم ترجمتها بالعربية ، وفى تصرفاته ومواجهته للجهالة من أبيه . كما تتجلى رحمة الله به وتعويضه عن أبيه وأهله المشركين ذرية صالحة تنسل أمة كبيرة ، فيها الأنبياء وفيها الصالحون . وقد خلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ينحرفون عن الصراط الذى سنه لهم أبوهم إبراهيم . هم هؤلاء المشركون . .

ويصف الله إبراهيم بأنه كان صديقا نبيا . ولفظة صديق تحتمل معنى أنه كثير الصدق وأنه كثير التصديق . وكلتاهما تناسب شخصية إبراهيم :

« واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا ، إذ قال لأبيه : ياأبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا ؟ ياأبت إنى قد جاءنى من العلم مالم يأتك فاتبعنى أهدك صراط سويا .

ياأبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمان عصيا . ياأبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمان فتكون للشيطان وليا .. »

بهذا اللطف فى الخطاب يتوجه إبراهيم إلى أبيه ، يحاول أن يهديه إلى الخير الذى هداه الله إليه ، وعلمه إياه ؛ وهو يتحبب إليه فيخاطبه : «ياأبت» ويسأله : « لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا ؟» والأصل فى العبادة أن يتوجه بها الإنسان إلى من هو أعلى من الإنسان وأعلم وأقوى . وأن يرفعها إلى مقام أسمى من مقام الإنسان وأسنى . فكيف يتوجه بها إذن إلى ماهو دون الإنسان ، بل إلى ماهو فى مرتبة أدنى من مرتبة الحيوان ، لا يسمع ولا يبصر ولا يملك ضرا ولا نفعا . إذ كان أبوه وقومه يعبدون الأصنام كما هو حال قريش الذين يواجههم الإسلام .

هذه هى اللمسة الأولى التى يبدأ بها إبراهيم دعوته لأبيه . ثم يتبعها بأنه لايقول هذا من نفسه ، إنما هو العلم الذى جاءه من الله فهداه . ولو أنه أصغر من أبيه سنا وأقل تجربة ، ولكن المدد العلوى جعله يفقه ويعرف الحق ؛ فهو ينصح أباه الذى لم يتلق هـذا العلم ، ليتبعه فى الطريق الذى هدى إليه :

« يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا » . .

فليست هناك غضاضة فى أن يتبع الوالد ولده ، إذا كان الولد على اتصال بمصدر أعلى . فإنما يتبع ذلك المصدر ، ويسير فى الطريق إلى الهدى .

وبعد هذا الكشف عما فى عبادة الأصنام من نكارة ، وبيان المصدر الذى يستمد منه إبراهيم ويعتمد عليه فى دعوة أبيه . . يبين له أن طريقه هو طريق الشيطان ، وهو يريد أن يهديه إلى طريق الرحمان ، فهو يخشى أن يغضب الله عليه فيقضى عليه أن يكون من أتباع الشيطان .

« يا أبت لا تعبد الشيطان . إن الشيطان كان للرحمان عصيا . يا أبت إنى إخاف أن يمسك عذاب من الرحمان فتكون للشيطان وليا » .

والشيطان هو الذى يغرى بعبادة الأصنام من دون الله ، فالذى يعبدها كأنما يتعبد الشيطان والشيطان عاص للرحمان . وإبراهيم يحذر أباه أن يغضب الله عليه فيعاقبه فيجعله وليا للشيطان

وتابعا . فهداية الله لعبده إلى الطاعة نعمة ؛ وقضاؤه عليه أن يكون من أولياء الشيطان نقمة . نقمة تقوده إلى عذاب أشد وخسارة أفدح يوم يقوم الحساب .

ولكن هذه الدعوة اللطيفة بأحب الألفاظ وأرقها لا تصل إلى القلب المشرك الجاسى ، فإذا أبو إبراهيم يقابله بالاستنكار والتهديد والوعيد :

« قال : أراغب أنت عن آلهتى ياإبراهيم ؟ لئن لم تنته لأرجمنك . واهجرنى مليا » .

أراغب أنت عن آلهتى ياإبراهيم ، وكاره لعبادتها ومعرض عنها ؟ أو بلغ بك الأمر إلى هذا الحد من الجراءة ؟! فهذا إنذار لك بالموت الفظيع إن أنت أصررت على هذا الموقف الشنيع : « لئن لم تنته لأرجمنك » ! فاغرب عن وجهى وابعد عنى طويلا . استبقاء لحياتك إن كنت تريد النجاة : « واهجرنى مليا » ..

بهذه الجهالة تلقى الرجل الدعوة إلى الهدى . وبهذه القسوة قابل القول المؤدب المهذب . وذلك شأن الإيمان مع الكفر ؛ وشأن القلب الذى هذبه الإيمان والقلب الذى أفسده الكفر .

ولم يغضب إبراهيم الحليم . ولم يفقد بره وعطفه وأدبه مع أبيه :

« قال : سلام عليك . سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيا . وأعتزلكم وماتدعون من دون الله ، وأدعو ربى عسى ألا أكون بدعاء ربى شقيا » .

سلام عليك . . فلا جدال ولا أذى ولا رد للتهديد والوعيد . سأدعو الله أن يغفر لك فلا يعاقبك بالاستمرار فى الضلال وتولى الشيطان ، بل يرحمك فيرزقك الهدى . وقد عودنى ربى أن يكرمنى فيجيب دعائى . وإذا كان وجودى إلى جوارك ودعوتى لك إلى الإيمان تؤذيك فسأعتزلك أنت وقومك ، وأعتزل ماتدعون من دون الله من الآلهة . وأدعو ربى وحده ، راجيا — بسبب دعائى لله — ألا يجعلنى شقيا .

فالذى يرجوه إبراهيم هو مجرد تجنيبه الشقاوة . . وذلك من الأدب والتحرج الذى يستشعره . فهو لا يرى لنفسه فضلا ، ولا يتطلع إلى أكثر من تجنيبه الشقاوة !

وهكذا اعتزل إبراهيم أباه وقومه وعبادتهم وآلهتهم وهجر أهله ودياره ، فلم يتركه الله وحيدا . بل وهب له ذرية وعوضه خيرا :

« فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب . وكلا جعلنا نبيا . ووهبنا لهم من رحمتنا ، وجعلنا لهم لسان صدق عليا » ..

وإسحاق هو ابن إبراهيم ، رزقه من سارة ـ وكانت قبله عقيا ـ ويعقوب هو ابن إسحاق : ولكنه يحسب ولدا لإبراهيم لأن إسحاق رزقه فى حياة جده ، فنشأ فى بيته وحجره ، وكان كأنه ولده المباشر ؛ وتعلم ديانته ولقنها بنيه . وكان نبيا كأبيه .

« ووهبنا لهم من رحمتنا » إبراهيم وإسحاق ويعقوب ونسلهم . . والرحمة تذكر هنا لأنها السمة البارزة فى جو السورة ، ولأنها هبة الله التى تعوض إبراهيم عن أهله ودياره ، وتؤنسه فى وحدته واعتزاله .

« وجعلنا لهم لسان صدق عليا » .. فكانوا صادقين فى دعوتهم ، مسموعى الكلمة فى قومهم . يؤخذ قولهم بالطاعة وبالتبجيل .

***

ثم يمضى السياق مع ذرية إبراهيم : مستطردا مع فرع إسحق فيذكر موسى وهارون :

« واذكر فى الكتاب موسى إنه كان مخلصا وكان رسولا نبيا . وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا . ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا » ..

فيصف موسى بأنه كان مخلصا استخلصه الله له ومحضه لدعوته . وكان رسولا نبيا . والرسول هو صاحب الدعوة من الأنبياء المأمور بإبلاغها للناس . والنبى لا يكلف إبلاغ الناس دعوة إنما هو فى ذاته صاحب عقيدة يتلقاها من الله. وكان فى بنى إسرائيل أنبياء كثيرون وظيفتهم القيام على دعوة موسى والحكم بالتوراة التى جاء بها من عند الله : « يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا . والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء » ..

ويبين فضل موسى بندائه من جانب الطور الأيمن (الأيمن بالنسبة لموسى إذ ذاك) وتقريبه إلى الله لدرجة الكلام . الكلام القريب فى صورة مناجاة . ونحن لا ندرى كيف كان هذا الكلام . وكيف أدركه موسى . . أكان صوتا تسمعه الأذن أم يتلقاه الكيان الإنسانى كله . ولا نعلم كيف أعد الله كيان موسى البشرى لتلقى كلام الله الأزلى . . إنما نؤمن أنه كان . وهو على الله هين أن يصل مخلوقه به بطريقة من الطرق ، وهو بشر على بشريته ، وكلام الله علوى على علويته . ومن قبل كان الإنسان إنسانا بنفخة من روح الله ..

ويذكر رحمة الله بموسى فى مساعدته بإرسال أخيه هارون معه حين طلب إلى الله أن يعينه به

« وأخى هارون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى ردءاً يصدقنى إنى أخاف أن يكذبون » .
وظل الرحمة هو الذى يظلل جو السورة كله .

ثم يعود السياق إلى الفرع الآخر من ذرية إبراهيم . فيذكر إسماعيل أبا العرب : « واذكر فى الكتاب إسماعيل ، إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا . وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة ، وكان عند ربه مرضيا » . .

وينوه من صفات إسماعيل بأنه كان صادق الوعد . وصدق الوعد صفة كل نبى وكل صالح ، فلا بد أن هـذه الصفة كانت بارزة فى إسماعيل بدرجة تستدعى إبرازها والتنويه بها بشكل خاص .

وهو رسول فلا بد أن كانت له دعوة فى العرب الأوائل وهو جدهم الكبير . وقد كان فى العرب موحدون أفراد قبيل الرسالة المحمدية ، فالأرجح أنهم بقية الموحدين من أتباع إسماعيل . ويذكر السياق من أركان العقيدة التى جاء بها الصلاة والزكاة وكان يأمر بها أهله . . ثم يثبت له أنه كان عند ربه مرضيا . . والرضى سمة من سمات هذه السورة البارزة فى جوها وهى شبيهة بسمة الرحمة ، وبينهما قرابة !

وأخيرا يختم السياق هذه الإشارات بذكر إدريس :

« واذكر فى الكتاب إدريس إنه كان صديقا نبيا . ورفعناه مكانا عليا » .

ولا نملك نحن تحديد زمان إدريس . ولكن الأرجح أنه سابق على إبراهيم وليس من أنبياء بنى إسرائيل فلم يرد ذكره فى كتبهم . والقرآن يصفه بأنه كان صديقا نبيا ويسجل له أن الله رفعه مكانا عليا . فأعلى قدره ورفع ذكره . .

وهناك رأى نذكره لمجرد الاستئناس به ولا نقرره أو ننفيه ، يقول به بعض الباحثين فى الآثار المصرية ، وهو أن إدريس تعريب لكلمة « أوزريس » المصرية القديمة . كما أن يحيى تعريب لكلمة يوحنا . وكلمة اليسع تعريب لكلمة إليشع . . وأنه هو الذى صيغت حوله أساطير كثيرة . فهم يعتقدون أنه صعد إلى السماء وصار له فيها عرش عظيم . وكل من وزنت أعماله بعد الموت فوجدت حسناته ترجح سيئاته فإنه يلحق بأوزريس الذى جعلوه إلها لهم . وقد علمهم العلوم والمعارف قبل صعوده إلى السماء .

وعلى أية حال فنحن نكتفى بما جاء عنه فى القرآن الكريم ؛ ونرجح أنه سابق على أنبياء بنى إسرائيل .

* * *

يستعرض السياق أولئك الأنبياء ، ليوازن بين هذا الرعيل من المؤمنين الأتقياء وبين الذين خلفوهم سواء من مشركى العرب أو من مشركى بنى إسرائيل . . فإذا المفارقة صارخة والمسافة شاسعة والهوة عميقة والفارق بعيد بين السلف والخلف :

« أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم ، وممن حملنا مع نوح ، ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل ، وممن هدينا واجتبينا . إذا تتلى عليهم آيات الرحمان خروا سجدا وبكيا . فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا . . . »

والسياق يقف فى هذا الاستعراض عند المعالم البارزة فى صفحة النبوة فى تاريخ البشرية : « من ذرية آدم » . « وممن حملنا مع نوح » . « ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل » . فآدم يشمل الجميع ، ونوح يشمل من بعده ، وإبراهيم يشمل فرعى النبوة الكبيرين : ويعقوب يشمل شجرة بنى إسرائيل . وإسماعيل وإليه ينتسب العرب ومنهم خاتم النبيين .

أولئك النبيون ومعهم من هدى الله واجتبى من الصالحين من ذريتهم . . صفتهم البارزة : « إذا تتلى عليهم آيات الرحمان خروا سجدا وبكيا » . . فهم أتقياء شديدو الحساسية بالله ؛ ترتعش وجداناتهم حين تتلى عليهم آياته ، فلا تسعفهم الكلمات للتعبير عما يخالج مشاعرهم من تأثر ، فتفيض عيونهم بالدموع ويخرون سجدا وبكيا . .

أولئك الأتقياء الحساسون الذين تفيض عيونهم بالدمع وتخشع قلوبهم لذكر الله . . خلف من بعدهم خلف ، بعيدون عن الله . « أضاعوا الصلاة » فتركوها وجحدوها « واتبعوا الشهوات » واستغرقوا فيها . فما أشد المفارقة ، وما أبعد الشبه بين أولئك وهؤلاء !

ومن ثم يتهدد السياق هؤلاء الذين خالفوا عن سيرة آبائهم الصالحين . يتهددهم بالضلال والهلاك : « فسوف يلقون غيا » والغى الشرود والضلال ، وعاقبة الشرود الضياع والهلاك .

ثم يفتح باب التوبة على مصراعيه تنسم منه نسمات الرحمة واللطف والنعمى :

« إلا من تاب وآمن وعمل صالحا ، فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئا . جنات عدن التي وعد الرحمــان عباده بالغيب . إنه كان وعده مأتيا . لا يسمعون فيها لغوا إلا سلاما . ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا . تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقيا » ..

فالتوبة التي تنشىء الإيمان والعمل الصالح ، فتحقق مدلولها الإيجابي الواضح . . تنجي من ذلك المصير فلا يلقى أصحابها « غيا » إنما يدخلون الجنــة ولا يظلمون شيئا . يدخلون الجنة للإقامة . الجنــة التي وعد الرحمان عباده إياها فآمنوا بها بالغيب قبل أن يروها . ووعد الله واقع لا يضيع . .

ثم يرسم صورة للجنة ومن فيها .. « لا يسمعون فيها لغوا إلا سلاما » فلا فضول في الحديث ولا ضجة ولا جدال ، إنما يسمع فيها صوت واحد يناسب هذا الجو الراضي . صوت السلام . . والرزق في هذه الجنة مكفول لا يحتاج إلى طلب ولا كد . ولا يشغل النفس بالقلق والخوف من التخلف أو النفاد : « ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا » فما يليق الطلب ولا القلق في هذا الجو الراضي الناعم الأمين . .

« تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقيا » .. فمن شاء الوراثة فالطريق معروف : التوبة والإيمان والعمل الصالح . أما وراثة النسب فلا تجدي . فقد ورث قوم نسب أولئك الأتقياء من النبيين وممن هدى الله واجتبى ؛ ولكنهم أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، فلم تنفعهم وراثة النسب « فسوف يلقون غيا » . .

* * *

ويختم هذا الدرس بإعلان الربوبية المطلقة لله ، والتوجيه إلى عبادته والصبر على تكاليفها . ونفي الشبيه والنظير :

« وما نتنزل إلا بأمر ربك ، له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك ، وما كان ربك نسيا . رب السماوات والأرض وما بينهما ، فاعبده واصطبر لعبادته . هل تعلم له سميا ؟ » ..

وتتضافر الروايات على أن قوله : « وما نتنزل إلا بأمر ربك .. » مما أمر جبريل عليه السلام أن يقوله للرسول — صلى الله عليــه وسلم — ردا على استبطائه للوحي فترة لم يأته فيها جبريل .

فاستوحشت نفسه ، واشتاقت للاتصال الحبيب . فـكلف جبريل أن يقول له : « وما تتنزل إلا بأمر ربك.» فهو الذى يملك كل شىء من أمرنا :

« له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك » وهو لا ينسى شيئا ، إنما ينزل الوحى عند ما تقتضى حكمته أن ينزل « وما كان ربك نسيا » فناسب بعد ذلك أن يذكر الاصطبار على عبادة الله مع إعلان الربوبية له دون سواه :

« رب السماوات والأرض وما بينهما » ..فلا ربوبية لغيره ، ولاشرك معه فى هذا الـكون الـكبير .

« فاعبده واصطبر لعبادته » . . اعبده واصطبر على تـكاليف العبادة . وهى تـكاليف الارتقاء إلى أفق المثول بين يدى المعبود ، والثبات فى هذا المرتقى العالى . اعبده واحشد نفسك وعبىء طاقتك للقاء والتلقى فى ذلك الأفق العلوى .. إنها مشقة . مشقة التجمع والاحتشاد والتجرد من كل شاغل ، ومن كل هاتف ومن كل التفات .. وإنها مع المشقة للذة لا يعرفها إلا من ذاق . ولـكنها لا تنال إلا بتلك المشقة ، وإلا بالتجرد لها ، والاستغراق فيها ، والتحفز لها بكل جارحة وخالجة . فهى لا تفشى سرها ولا تمنح عطرها إلا لمن يتجرد لها ، ويفتح منافذ حسه وقلبه جميعا .

« فاعبده واصطبر لعبادته » . . والعبادة فى الإسلام ليست مجرد الشعائر . إنما هى كل نشاط : كل حركة . كل خالجة . كل نية . كل اتجاه . . وإنها لمشقة أن يتجه الإنسان فى هذا كله إلى الله وحده دون سواه . مشقة تحتاج إلى الاصطبار . ليتوجه القلب فى كل نشاط من نشاط الأرض إلى السماء . خالصا من أوشاب الأرض وأوهاق الضرورات ، وشهوات النفس، ومواضعات الحياة .

إنه منهج حياة كامل ، يعيش الإنسان وفقه ، وهو يستشعر فى كل صغيرة وكبيرة طوال الحياة أنه يتعبد الله ؛ فيرتفع فى نشاطه كله إلى أفق العبادة الطاهر الوضىء . وإنه لمنهج يحتاج إلى الصبر والجهد والمعاناة .

فاعبده واصطبر لعبادته . . فهو الواحد الذى يعبد فى هذا الوجود والذى تتجه إليه الفطر والقلوب . . « هل تعلم له سميا ؟ » . هل تعرف له نظيرا ؟ تعالى الله عن السمى والنظير . .

« وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ : أَئِذَا مَامِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ؟ * أَوَ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ؟ * فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ، ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا * ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَانِ عِتِيًّا * ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا * وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا . كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا * ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا .

« وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا : أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ؟ * وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا * قُلْ : مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَانُ مَدًّا ، حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ : إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا * وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ، وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا .

« أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ : لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا * أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَانِ عَهْدًا ؟ * كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا * وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا .

« وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا .

« أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا * فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا * يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَانِ وَفْدًا * وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا * لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَانِ عَهْدًا .

.. « وَقَالُوا : اتَّخَذَ الرَّحْمَانُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ

مِنْهُ ، وَتَنْشَقُّ ٱلْأَرْضُ ، وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَانِ وَلَدًا * وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَانِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِنْ كُلُّ مَنْ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا آتِي ٱلرَّحْمَانِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ فَرْدًا * إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَانُ وُدًّا .

« فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا * وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ . هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ ؟ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ؟ » . .

مضى السياق فى السورة بقصص زكريا ومولد يحيى ؛ ومريم ومولد عيسى ؛ وإبراهيم واعتزاله لأبيه . ومن خلف بعدهم من المهتدين والضالين ، وبالتعقيب على هذا القصص بإعلان الربوبية الواحدة ، التى تستحق العبادة بلا شريك ؛ وهى الحقيقة الكبيرة التى يبرزها ذلك القصص بأحداثه ومشاهده وتعقيباته .

وهذا الدرس الأخير فى السورة يمضى فى جدل حول عقائد الشرك وحول إنكار البعث . ويعرض فى مشاهد القيامة مصائر البشر فى مواقف حية حافلة بالحركة والانفعال ، يشارك فيها الكون كله ، سماواته وأرضه ، إنسه وجنه ، مؤمنوه وكافروه .

وينتقل السياق بمشاهده بين الدنيا والآخرة ، فإذا هما متصلتان. تعرض المقدمة هنا فى هذه الأرض ، وتعرض نتيجتها هنالك فى العالم الآخر ، فلا تتجاوز المسافة بضع آيات أو بضع كلمات. مما يلقى فى الحس أن العالمين متصلان مرتبطان متكاملان .

* * *

« ويقول الإنسان : أئذا ما مت لسوف أخرج حيا ؟ أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا ؟ فوربك لنحشرنهم والشياطين ، ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا . ثم لننزعن

من كل شيعة أيهم أشد على الرحمان عتيا . ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا . وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا . ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا » .

يبدأ المشهد بذكر ما يقوله « الإنسان » عن البعث . ذلك أن هذه المقولة قالتها صنوف كثيرة من البشر فى عصور مختلفة ؛ فكأنما هى شبهة « الإنسان » واعتراضه المتكرر فى جميع الأجيال :

« ويقول الإنسان : أئذا ما مت لسوف أخرج حيا ؟ » . .

وهو اعتراض منشؤه غفلة الإنسان عن نشأته الأولى . فأين كان ؟ وكيف كان؟ إنه لم يكن ثم كان ؛ والبعث أقرب إلى التصور من النشأة الأولى لو أنه تذكر :

« أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا ؟ » .

ثم يعقب على هذا الإنكار والاستنكار بقسم تهديدى . يقسم الله تعالى بنفسه وهو أعظم قسم وأجله ؛ أنهم سيحشرون ــ بعد البعث فهذا أمر مفروغ منه :

« فوربك لنحشرنهم».. ولن يكونوا وحدهم . فلنحشرنهم « والشياطين » فهم والشياطين سواء . والشياطين هم الذين يوسوسون بالإنكار ، وبينهما صلة التابع والمتبوع ، والقائد والمقود . .

وهنا يرسم لهم صورة حسية وهم جاثون حول جهنم جثوّ الخزى والمهانة : « ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا» .. وهى صورة رهيبة وهذه الجموع التى لا يحصيها العد محشورة محضرة إلى جهنم جاثية حولها ، تشهد هولها ويلفحها حرها ، وتنتظر فى كل لحظة أن تؤخذ فتلقى فيها . وهم جاثون على ركبهم فى ذلة وفزع . .

وهو مشهد ذليل للمتجبرين المتكبرين ، يليه مشهد النزع والجذب لمن كانوا أشد عتوا وتجبرا :

« ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمان عتيا » . . وفى اللفظ تشديد ، ليرسم بظله وجرسه صورة لهذا الانتزاع ؛ تتبعها صورة القذف فى النار ، وهى الحركة التى يكملها الخيال !

وإن الله ليعلم من هم أولى بأن يصلوها ، فلا يؤخذ أحد جزافا من هذه الجموع التى لا تحصى . والتى أحصاها الله فردا فردا :

« ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا » . . فهم المختارون ليكونوا طليعة المقذوفين !
وإن المؤمنين ليشهدون العرض الرهيب : « وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا » فهم يردون فيدنون ويمرون بها وهى تتأجج وتتميز وتتلمظ ؛ ويرون العتاة ينزعون ويقذفون . « ثم ننجى الذين اتقوا » فتزحزح عنهم وينجون منها لايكادون ! « ونذر الظالمين فيها جثيا » . .

* * *

ومن هذا المشهد الفزع الذى يجثو فيه العتاة جثو الخزى والمهانة ، ويروح فيه المتقون ناجين . ويبقى الظالمون فيه جاثين . . من هذا المشهد إلى مشهد فى الدنيا يتعالى فيه الكفار على المؤمنين ، ويعيرونهم بفقرهم ، ويعتزون بثرائهم ومظاهرهم وقيمهم فى عالم الفناء :

« وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات . قال الذين كفروا للذين آمنوا : أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا ؟ » . .

إنها النوادى الفخمة والمجامع المترفة ؛ والقيم التى يتعامل بها الكبراء والمترفون فى عصور الفساد . وإلى جانبها تلك المجتمعات المتواضعة المظهر والمنتديات الفقيرة إلا من الإيمان . لا أبهة ولا زينة ، ولا زخرف ، ولا فخامة .. هذه وتلك تتقابلان فى هذه الأرض وتجتمعان !

وتقف الأولى بمغرياتها الفخمة الضخمة : تقف بمالها وجمالها . بسلطانها وجاهها . بالمصالح تحققها ، والمغانم توفرها ، وباللذائذ والمتاع . وتقف الثانية بمظهرها الفقير المتواضع ، تهزأ بالمال والمتاع ، وتسخر من الجاه والسلطان ؛ وتدعو الناس إليها ، لا باسم لذة تحققها ، ولا مصلحة توفرها ، ولا قربى من حاكم ولا اعتزاز بذى سلطان . ولكن باسم العقيدة تقدمها إليهم مجردة من كل زخرف ، عاطلة من كل زينة ، معتزة بعزة الله دون سواه . . لا بل تقدمها إليهم ومعها المشقة والجهد والجهاد والاستهتار ، لا تملك أن تأجرهم على ذلك كله شيئا فى هذه الأرض ، إنما هو القرب من الله ، وجزاؤه الأوفى يوم الحساب .

وهؤلاء هم سادة قريش تتلى عليهم آيات الله ـ على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ـ فيقولون للمؤمنين الفقراء : « أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا ؟ » الكبراء الذين لا يؤمنون بمحمد ،أم الفقراء الذين يلتفون حوله . أيهم خير مقاما وأحسن ناديا ؟ النضير ابن

الحارث وعمرو ابن هشام والوليد ابن المغيرة وإخوانهم من السادة ، أم بلال وعمار وخباب وإخوانهم من المعدمين ؟ أفلو كان ما يدعو إليه محمد خيرا أفكان أتباعه يكونون هم هؤلاء النفر الذين لا قيمة لهم فى مجتمع قريش ولا خطر ؟ وهم يجتمعون فى بيت فقير عاطل كبيت خباب ؟ ويكون معارضوه هم أولئك أصحاب النوادى الفخمة الضخمة والمكانة الاجتماعية البارزة ؟ .

إنه منطق الأرض . منطق المحجوبين عن الآفاق العليا فى كل زمان ومكان . وإنها لحكمة الله أن تقف العقيدة مجردة من الزينة والطلاء ، عاطلة من عوامل الإغراء . ليقبل عليها من يريدها لذاتها خالصة لله من دون الناس ، ومن دون ما تواضعوا عليه من قيم ومغريات ؛ وينصرف عنها من يبتغى المطامع والمنافع ، ومن يشتهى الزينة والزخرف ، ومن يطلب المال والمتاع .

ويعقب السياق على قولة الكفار التياهين ، المتباهين بما هم فيه من مقام وزينة بلمسة وجدانية ترجع القلب إلى مصارع الغابرين ، على ما كانوا فيه من مقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين :

« وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثا ورئيا[1] » . .

فلم ينفعهم أثاثهم ورياشهم وزينتهم ومظهرهم . ولم يعصمهم شىء من الله حين كتب عليهم الهلاك .

ألا إن هذا الإنسان لينسى . ولو تذكر وتفكر ما أخذه الغرور بمظهر ؛ ومصارع الغابرين من حوله تلفته بعنف وتنذره وتحذره ، وهو سادر فيما هو فيه ، غافل عما ينتظره مما لقيه من كانوا قبله وكانوا أشد قوة وأكثر أموالا وأولادا .

يعقب السياق بتلك اللفتة ثم يأمر الرسول — صلى الله عليه وسلم — أن يدعو عليهم فى صورة مباهلة — بأن من كان من الفريقين فى الضلالة فليزده الله مما هو فيه ؛ حتى يأتى وعده فى الدنيا أو فى الآخرة :

« قل : من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمان مدا ، حتى إذا رأوا ما يوعدون إما العذاب

---

(١) مظهرا ومنظرا .

وإما الساعة فسيعلمون من هو شر مكانا وأضعف جندا ، ويزيد الله الذين اهتدوا هدى والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير مردا » . .

فهم يزعمون أنهم أهدى من أتباع محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأنهم أغنى وأبهى . فليكن! وليدع محمد ربه أن يزيد الضالين من الفريقين ضلالا ، وأن يزيد المهتدين منهما اهتداء . . حتى إذا وقع ما يعدهم ؛ وهو لا يعدو أن يكون عذاب الضالين فى الدنيا بأيدى المؤمنين ، أو عذابهم الأكبر يوم الدين ـ فعندئذ سيعرفون : أى الفريقين شر مكانا وأضعف جندا . ويومئذ يفرح المؤمنون ويعتزون « والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير مردا » خير من كل ما يتباهى به أهل الأرض ويتيهون .

* * *

ثم يستعرض السياق نموذجا آخر من تبجح الكافرين ، وقولة أخرى من أقوالهم يستنكرها ويعجب منها :

« أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال : لأوتين مالا وولدا ؟ أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمان عهدا ؟ كلا سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مدا . ونرثه ما يقول ويأتينا فردا » . .

ورد فى سبب نزول هذه الآيات ـ بإسناده ـ عن خباب بن الأرت قال : كنت رجلا قينا (حدادا) وكان لى على العاص ابن وائل دين فأتيته أتقاضاه منه فقال : لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد ، فقلت : لا والله ، لا أكفر بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى تموت ثم تبعث . قال : فإنى إذا مت ثم بعثت جئتنى ولى ثم مال وولد ، فأعطيتك ! فأنزل الله : « أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال : لأوتين مالا وولدا ...[1] » .

وقولة العاص ابن وائل نموذج من تهكم الكفار واستخفافهم بالبعث ؛ والقرآن يعجب من أمره ، ويستنكر ادعاءه : « أطلع الغيب ؟ » فهو يعرف ما هنالك . « أم اتخذ عند الرحمان عهدا » فهو واثق من تحققه ؟ ثم يعقب : « كلا » . وهى لفظة نفى وزجر . كلا لم يطلع على الغيب ولم يتخذ عند الله عهدا ، إنما هو يكفر ويسخر ؛ فالتهديد إذن والوعيد هو اللائق لتأديب

---

(١) البخارى ومسلم .

الـكافرين السافرين : « كلا سنكتب مايقول ونمد له من العذاب مدا » .. سنـكتب مايقول فنسجله عليه ليوم الحساب فلا يُنسى ولا يقبل المغالطة . . وهو تعبير تصويرى للتهديد . وإلا فالمغالطة مستحيلة ، وعلم الله لا تند عنه صغيرة ولا كبيرة . ونمد له من العذاب مداء فنزيده منه ونطيله عليه ولا نقطعه عنه ! ويستمر السياق فى التهديد على طريقة التصوير أيضا : « ونرثه ما يقول » أى نأخذ ما يخلفه مما يتحدث عنه من مال وولد كما يفعل الوارث بعد موت المورث ! « ويأتينا فردا » لا مال معه ولا ولد ولا نصير له ولا سند ، مجردا ضعيفا وحيدا فريدا .

فهل رأيت إلى هذا الذى كفر بآيات الله وهو يحيل على يوم لا يملك فيه شيئا ؟ يوم يجرد من كل ما يملك فى هذه الدنيا ؟ إنه نموذج من نماذج الـكفار . نموذج الـكفر والادعاء والاستهتار . .

* * *

ويستطرد السياق فى استعراض ظواهر الـكفر والشرك :

« واتخذوا من دون الله آلهة ليـكونوا لهم عزا ، كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا . ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الـكافرين تؤزهم أزا . فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عدا . يوم نحشر المتقين إلى الرحمان وفدا ، ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا ، لا يملـكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمان عهدا » .

فهؤلاء الذين يكفرون بآيات الله يتخذون من دونه آلهة يطلبون عندها العزة ، والغلب والنصرة . وكان فيهم من يعبد الملائـكة ومن يعبد الجن ويستنصرونهم ويتقوون بهم . كلا ! فسيكفر الملائـكة والجن بعبادتهم ، وينـكرونها عليهم ، ويبرأون إلى الله منهم ، « ويكونون عليهم ضدا » بالتبرؤ منهم والشهادة عليهم .

وإن الشياطين ليهيجونهم إلى المعاصى . فهم مسلطون عليهم ، مأذون لهم فى إغوائهم منذ أن طلب إبليس إطلاق يده فيهم . .

« فلا تعجل عليهم » ولا يضق صدرك بهم ؟ فإنهم ممهلون إلى أجل قريب ، وكل شىء من أعمالهم محسوب عليهم ومعدود . . والتعبير يصور دقة الحساب تصويرا محسوسا « إنما نعد لهم

عدا » .. وإنه لتصوير مرهوب ، فيا ويل من يعد الله عليه ذنوبه وأعماله وأنفاسه ، ويتتبعها ليحاسبه الحساب العسير . . إن الذى يحس أن رئيسه فى الأرض يتتبع أعماله وأخطاءه يفزع ويخاف ويعيش فى قلق وحسبان . . فكيف بالله المنتقم الجبار ؟ !

وفى مشهد من مشاهد القيامة يصور عاقبة العد والحساب . فأما المؤمنون فقادمون على الرحمان وفدا فى كرامة وحسن استقبال : « يوم نحشر المتقين إلى الرحمان وفدا » . وأما المجرمون فمسوقون إلى جهنم وردا كما تساق القطعان. « ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا » . ولا شفاعة يومئذ إلا لمن قدم عملا صالحا فهو عهد له عند الله يستوفيه . وقد وعد الله من آمن وعمل صالحا أن يجزيه الجزاء الأوفى ، ولن يخلف الله وعدا .

* * *

ثم يستطرد السياق مرة أخرى إلى مقولة منكرة من مقولات المشركين . ذلك حين يقول المشركون من العرب : الملائكة بنات الله . والمشركون من اليهود : عزير ابن الله . والمشركون من النصارى : المسيح ابن الله . . فينتفض الكون كله لهذه القولة المنكرة التى تنكرها فطرته ، وينفر منها ضميره :

« وقالوا : اتخذ الرحمان ولدا . لقد جئتم شيئا إدًّا . تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا ، أن دعوا للرحمان ولدا ، وما ينبغى للرحمان أن يتخذ ولدا » ..

إن جرس الألفاظ وإيقاع العبارات ليشارك ظلال المشهد فى رسم الجو : جو الغضب والغيرة والانتفاض ! وإن ضمير الكون وجوارحه لتنتفض ، وترتعش وترجف من سماع تلك القولة النابية ، والمساس بقداسة الذات العلية ، كما ينتفض كل عضو وكل جارحة عند ما يغضب الإنسان للمساس بكرامته أو كرامة من يحبه ويوقره .

هذه الانتفاضة الكونية للكلمة النابية تشترك فيها السماوات والأرض والجبال ، والألفاظ بإيقاعها ترسم حركة الزلزلة والارتجاف .

وما تكاد الكلمة النابية تنطلق : « وقالوا : اتخذ الرحمان ولدا » حتى تنطلق كلمة التفظيع والتبشيع : « لقد جئتم شيئا إدا » ثم يهتز كل ساكن من حولهم ويرتج كل مستقر ، ويغضب الكون كله لبارئه . وهو يحس بتلك الكلمة تصدم كيانه وفطرته ؛ وتجافى ما وقر

فى ضميره وما استقر فى كيانه ؛ وتهز القاعدة التى قام عليها واطمأن إليها : « تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا. أن دعوا للرحمن ولدا. وما ينبغى للرحمان أن يتخذ ولدا » . .

وفى وسط الغضبة الكونية يصدر البيان الرهيب :

« إن كل من فى السماوات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا . لقد أحصاهم وعدهم عدا . وكلهم آتيه يوم القيامة فردا » .

إن كل من فى السماوات والأرض إلا عبد يأتى معبوده خاضعا طائعا ، فلا ولد ولاشريك ، إنما خلق وعبيد .

وإن الكيان البشرى ليرتجف وهو يتصور مدلول هذا البيان . . « لقد أحصاهم وعدهم عدا » فلا مجال لهرب أحد ولا لنسيان أحد « وكلهم آتيه يوم القيامة فردا » فعين الله على كل فرد . وكل فرد يقدم وحيدا لا يأنس بأحد ولا يعتز بأحد . حتى روح الجماعة ومشاعر الجماعة يجرد منها ، فإذا هو وحيد فريد أمام الديان .

وفى وسط هذه الوحدة والوحشة والرهبة ، إذا المؤمنون فى ظلال ندية من الود السامى : ود الرحمان :

« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمان ودا » . .

والتعبير بالود فى هذا الجو نداوة رخية تمس القلوب ، وروح رضى يلمس النفوس . وهو ود يشيع فى الملأ الأعلى ، ثم يفيض على الأرض والناس فيمتلىء به الكون كله ويفيض . .

عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « إن الله إذا أحب عبدا دعا جبريل فقال : يا جبريل إنى أحب فلانا فأحبه . قال : فيحبه جبريل . ثم ينادى فى أهل السماء : ان الله يحب فلانا فأحبوه . قال : فيحبه أهل السماء . ثم يوضع له القبول فى الأرض . وإن الله إذا أبغض عبدا دعا جبريل فقال : يا جبريل إنى أبغض فلانا فأبغضه . قال : فيبغضه جبريل . ثم ينادى فى أهل السماء : ان الله يبغض فلانا فأبغضوه . قال : فيبغضه أهل السماء ؛ ثم يوضع له البغضاء فى الأرض[1] » . .

* * *

(١) رواه الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا أبو عوانة ، حدثنا سهيل عن أبيه عن أبى هريرة . ورواه مسلم من حديث سهيل . ورواه أحمد والبخارى من حديث ابن جريج عن موسى عن ابن عتبة عن نافع عن أبى هريرة .

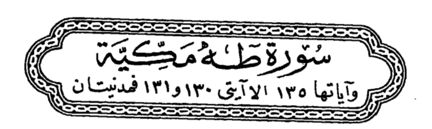
وبعد فإن هذه البشرى للمؤمنين المتقين، وذلك الإنذار للجاحدين الخصيمين هما غاية هذا القرآن . ولقد يسره الله للعرب فأنزله بلسان الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ ليقرأوه :

« فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدّاً » . .

وتختم السورة بمشهد يتأمله القلب طويلا ؛ ويرتعش له الوجدان طويلا ؛ ولا ينتهى الخيال من استعراضه وتمليه :

« وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا ؟ » .

وهو مشهد يبدؤك بالرجة المدمرة ، ثم يغمرك بالصمت العميق . وكأنما يأخذ بك إلى وادى الردى ، ويقفك على مصارع القرون ؛ وفى ذلك الوادى الذى لا يكاد يحده البصر، يسبح خيالك مع الشخوص التى كانت تدب وتتحرك ، والحياة التى كانت تنبض وتمرح . والأمانى والمشاعر التى كانت تحيا وتتطلع . . ثم إذا الصمت يخيم ، والموت يجثم ، وإذا الجثث والأشلاء والبلى والدمار، لا نأمة . لا حس. لا حركة. لا صوت .. « هل تحس منهم من أحد ؟ » انظر وتلفت « هل تسمع لهم ركزا » تسمع وأنصت . ألا إنه السكون العميق والصمت الرهيب . وما من أحد إلا الواحد الحى الذى لا يموت ...



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى * تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى * الرَّحْمَانُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى * لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى * وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى .

* * *

« وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ رَأَى نَارًا ، فَقَالَ لِأَهْلِهِ : امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا ، لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى .

« فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَامُوسَى : إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى * إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي * إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ ، أَكَادُ أُخْفِيهَا ، لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى * فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى .

« وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَامُوسَى ؟ * قَالَ : هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى * قَالَ : أَلْقِهَا يَامُوسَى * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى *

قَالَ : خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى * وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى * لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى * اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * قَالَ : رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا * إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا * قَالَ : قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَامُوسَى. وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى * إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَايُوحَى * أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ ، فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ ، يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ ؛ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي * إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ : هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ ؟ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ، وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ ، وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ، فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَامُوسَى * وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي * اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي * اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ : قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى .

« قَالَا : رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى * قَالَ : لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى * فَأْتِيَاهُ فَقُولَا : إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ ، وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى * إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى .

« قَالَ : فَمَنْ رَبُّكُمَا يَامُوسَى * قَالَ : رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى * قَالَ : فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ؟ * قَالَ : عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا ، وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ، وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى * كُلُوا وَارْعَوْا

أنعامكم . إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لأولي النُّهى * منها خلقناكم ، وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارةً أخرى . ولقد أريناه آياتنا كلَّها فكذَّب وأبى * قال : أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى ؟ * فلنأتينَّك بسحرٍ مثله ، فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سوًى * قال : موعدكم يوم الزينة وأن يحشر النَّاس ضحًى .

« فتولَّى فرعون فجمع كيده ثمَّ أتى * قال لهم موسى : ويلكم لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذابٍ ، وقد خاب من افترى * فتنازعوا أمرهم بينهم وأسرُّوا النجوى * قالوا : إنْ هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ، ويذهبا بطريقتكم المثلى * فأجمعوا كيدكم ثمَّ ائتوا صفاً ، وقد أفلح اليوم من استعلى * قالوا : ياموسى إمَّا أن تلقي وإمَّا أن نكون أوَّل من ألقى * قال : بل ألقوا . فإذا حبالهم وعصيُّهم يخيَّل إليه من سحرهم أنها تسعى * فأوجس في نفسه خيفةً موسى * قلنا : لا تخف إنَّك أنت الأعلى * وألق ما في يمينك تلقف ماصنعوا ، إنَّ ماصنعوا كيد ساحرٍ ولا يفلح السَّاحر حيث أتى .

« فألقي السَّحرة سجَّداً ، قالوا : آمنَّا بربِّ هارون وموسى * قال : آمنتم له قبل أن آذن لكم ، إنَّه لكبيركم الَّذي علَّمكم السِّحر ، فلأقطِّعنَّ أيديكم وأرجلكم من خلافٍ ، ولأصلِّبنَّكم في جذوع النَّخل ، ولتعلمنَّ أيُّنا أشدُّ عذاباً وأبقى * قالوا : لن نؤثرك على ماجاءنا من البيِّنات والَّذي فطرنا ، فاقض ما أنت قاضٍ ، إنَّما تقضي هذه الحياة الدُّنيا * إنَّا آمنَّا بربِّنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السِّحر ، والله خيرٌ وأبقى * إنَّه من يأت ربَّه مجرماً فإنَّ له جهنَّم لا يموت فيها ولا يحيا * ومن يأته مؤمناً قد عمل الصَّالحات

فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَاتُ ٱلْعُلَىٰ * جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّىٰ .

« وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي ٱلْبَحْرِ يَبَسًا ، لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ * فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ ، فَغَشِيَهُمْ مِنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ .

« يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ ، وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ * كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي ، وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ * وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ .

« وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ ؟ * قَالَ : هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي ، وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ * قَالَ : فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ ، وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ .

« فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ، قَالَ : يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ؟ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي ؟ * قَالُوا : مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا ، وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ * فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ ، فَقَالُوا : هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ * أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا ، وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا * وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ : يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ ، وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ ، فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي * قَالُوا : لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ * قَالَ : يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلَّا تَتَّبِعَنِ ؟ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي * قَالَ : يَا ٱبْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي ، إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ : فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي .

« قَالَ : فَمَا خَطْبُكَ يَاسَامِرِيُّ ؟ * قَالَ : بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ ، فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا ، وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي * قَالَ : فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ : لَا مِسَاسَ ، وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ ، وَانْظُرْ إِلَى إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ، لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا * إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا » .

تبدأ هـذه السورة وتختم خطابا للرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ ببيان وظيفته وحدود تـكاليفه .. إنها ليست شقوة كتبت عليه ، وليست عناء يعذب به . إنما هى الدعوة والتذكرة ، وهى التبشير والإنذار . وأمر الخلق بعد ذلك إلى الله الواحد الذى لا إله غيره . المهيمن على ظاهر الـكون وباطنه ، الخبير بظواهر القلوب وخوافيهـا . الذى تعنو له الجباه ، ويرجع إليه الناس : طائعهم وعاصيهم . . فلا على الرسول ممن يكذب ويكفر ؛ ولا يشقى لأنهم يكذبون ويكفرون .

وبين المطلع والختام تعرض قصة موسى عليه السلام من حلقة الرسالة إلى حلقة اتخاذ بنى اسرائيل للعجل بعد خروجهم من مصر ، مفصلة مطولة ؛ وبخاصة موقف المناجاة بين الله وكليمه موسى . ــ وموقف الجدل بين موسى وفرعون . وموقف المبـاراة بين موسى والسحرة ... وتتجلى فى غضون القصة رعاية الله لموسى الذى صنعه على عينه واصطنعه لنفسه ، وقال له ولأخيه : « لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى » . .

وتعرض قصة آدم سريعة قصيرة ، تبرز فيها رحمة الله لآدم بعد خطيئته ، وهدايته له . وترك البشر من أبنائه لما يختارون من هدى أو ضلال بعد التذكير والإنذار .

وتحيط بالقصة مشاهد القيامة . وكأنما هى تـكملة لما كان أول الأمر فى الملأ الأعلى من قصة آدم . حيث يعود الطائعون إلى الجنة ، ويذهب العصاة إلى النار . تصديقا لمـا قيل لأبيهم آدم ، وهو يهبط إلى الأرض بعد ما كان !

ومن ثم يمضى السياق فى هـذه السورة فى شوطين اثنين : الشوط الأول يتضمن مطلع

السورة بالخطاب إلى الرسول — صلى الله عليه وسلم — « ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى . إلا تذكرة لمن يخشى . . . » تتبعه قصة موسى نموذجا كاملا لرعاية الله سبحانه لمن يختارهم لإبلاغ دعوته فلا يشقون بها وهم فى رعايته .

والشوط الثانى يتضمن مشاهد القيامة وقصة آدم وهما يسيران فى اتجاه مطلع السورة وقصة موسى . ثم ختام السورة بما يشبه مطلعها ويتناسق معه ومع جو السورة .

وللسورة ظل خاص يغمر جوها كله . . ظل علوى جليل ، تخشع له القلوب ، وتسكن له النفوس ، وتعنو له الجباه . . إنه الظل الذى يخلعه تجلى الرحمان على الوادى المقدس على عبده موسى ، فى تلك المناجاة الطويلة ؛ والليل ساكن وموسى وحيد ، والوجود كله يتجاوب بذلك النجاء الطويل . . وهو الظل الذى يخلعه تجلى القيوم فى موقف الحشر العظيم : « وخشعت الأصوات للرحمان فلا تسمع إلا همساً » . . « وعنت الوجوه للحى القيوم » . .

والإيقاع الموسيقى للسورة كلها يستطرد فى مثل هذا الجو من مطلعها إلى ختامها رخيا شجيا نديا بذلك المد الذاهب مع الألف المقصورة فى القافية كلها تقريبا . .

* * *

« طه . ماأنزلنا عليك القرآن لتشقى . إلا تذكرة لمن يخشى . تنزيلا ممن خلق الأرض والسماوات العلى . الرحمان على العرش استوى . له مافى السماوات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى . وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى . الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى» .

مطلع رخى ندى . يبدأ بالحروف المقطعة : « طا . ها » للتنبيه إلى أن هـذه السورة . كهذا القرآن — مؤلفة من مثل هذه الحروف على نحو ماأوردنا فى مطالع السور . ويختار هنا حرفان ينتهيان بإيقاع كإيقاع السورة ، ويقصران ولا يمدان لتنسيق الإيقاع كذلك .

يتلو هذين الحرفين حديث عن القرآن — كما هو الحال فى السور التى تبدأ بالحروف المقطعة — فى صورة خطاب إلى الرسول — صلى الله عليه وسلم — :

« ماأنزلنا عليك القرآن لتشقى » . . ماأنزلنا عليك القرآن ليؤدى إلى شقائك به أو بسببه . ماأنزلناه لتشقى بتلاوته والتعبد به حتى يجاوز ذلك طاقتك ، ويشق عليك ؛ فهو ميسر للذكر ، لا تتجاوز تكاليفه طاقة البشر ، ولا يكلفك إلا مافى وسعك ، ولا يفرض

عليك إلا ما فى طوقك والتعبد به فى حدود الطاقة نعمة لا شقوة ، وفرصة للاتصال بالملأ الأعلى ، ، واستمداد القوة والطمأنينة ، والشعور بالرضى والأنس والوصول . .

وما أنزلناه عليك لتشقى مع الناس حين لا يؤمنون به . فلست مكلفا أن تحملهم على الإيمان حملا ؛ ولا أن تذهب نفسك عليهم حسرات ؛ وما كان هذا القرآن إلا للتذكير والإنذار :

« إلا تذكرة لمن يخشى » ..

والذى يخشى يتذكر حين يُذكر ، ويتقى ربه فيستغفر . وعند هذا تنتهى وظيفة الرسول — صلى الله عليه وسلم — فلا يكلف فتح مغاليق القلوب ، والسيطرة على الأفئدة والنفوس . إنما ذلك إلى الله الذى أنزل هـذا القرآن . وهو المهيمن على الكون كله ، المحيط بخفايا القلوب والأسرار :

« تنزيلا ممن خلق الأرض والسماوات العلى . الرحمان على العرش استوى . له ما فى السماوات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى » ..

فالذى نزل هـذا القرآن هو الذى خلق الأرض والسماوات .. السماوات العلى .. فالقرآن ظاهرة كونية كالأرض والسماوات . تنزلت من الملأ الأعلى . ويربط السياق بين النواميس التى تحكم الكون والتى ينزل بها القرآن ؛ كما ينسق ظل السماوات العلى مع الأرض ، وظل القرآن الذى ينزل من الملأ الأعلى إلى الأرض ..

والذى نزل القرآن من الملأ الأعلى ، وخلق الأرض والسماوات العلى ، هو « الرحمان » فما نزله على عبده ليشقى . وصفة الرحمة هى التى تبرز هنا للإلمام بهذا المعنى . وهو المهيمن على الكون كله . « على العرش استوى » والاستواء على العرش كناية عن غاية السيطرة والاستعلاء . فأمر الناس إذن إليه وما على الرسول إلا التذكرة لمن يخشى .

ومع الهيمنة والاستعلاء الملك والإحاطة :

« له ما فى السماوات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى » ..

والمشاهد الكونية تستخدم فى التعبير لإبراز معنى الملك والإحاطة فى صورة يدركها التصور البشرى . والأمر أكبر من ذلك جدا . ولله ما فى الوجود كله وهو أكبر مما فى السماوات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى .

وعلم الله يحيط بما يحيط به ملكه :

« وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى » ..

وينسق التعبير بين الظل الذى تلقيه الآية : « له ما فى السماوات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى » . والظل الذى تلقيه للآية بعدها : « وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى » ينسق بين الظاهر الجاهر فى الكون ، والظاهر الجاهر من القول . وبين المستور المخبوء تحت الثرى والمستور المخبوء فى الصدور : السر وأخفى . على طريقة التنسيق فى التصوير . والسر خاف . وما هو أخفى من السر تصوير لدرجات الخفاء والاستتار ، كما هو الحال تحت أطباق الثرى ..

والخطاب للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لطمأنة قلبه بأن ربه معه يسمعه ، ولا يتركه وحده يشقى بهذا القرآن ، ويواجه الكافرين بلا سند ، فإذا كان يدعوه جهرا فإنه يعلم السر وأخفى . والقلب حين يستشعر قرب الله منه ، وعلمه بسره ونجواه ، يطمئن ويرضى ؛ ويأنس بهذا القرب فلا يستوحش من العزلة بين المكذبين المناوئين ؛ ولا يشعر بالغربة بين المخالفين له فى العقيدة والشعور .

ويختم هذا المطلع بإعلان وحدانية الله بعد إعلان هيمنته وملكيته وعلمه :

« الله لا إله إلا هو . له الأسماء الحسنى » . .

و « الحسنى » تشارك فى تنسيق الإيقاع ، كما تشارك فى تنسيق الظلال . ظلال الرحمة والقرب والرعاية ، التى تغمر جو هذا المطلع وجو السورة كله .

* * *

ثم يقص الله على رسوله حديث موسى ، نموذجا لرعايته للمختارين لحمل دعوته : وقصة موسى هى أكثر قصص المرسلين وروداً فى القرآن . وهى تعرض فى حلقات تناسب موضوع السورة التى تعرض فيها وجوها وظلها . وقد وردت حلقات منها حتى الآن فى سورة البقرة . وسورة المائدة . وسورة الأعراف . وسورة يونس . وسورة الإسراء . وسورة الكهف . . وذلك غير الإشارات إليها فى سور أخرى .

وما جاء منها فى المائدة كان حلقة واحدة : حلقة وقوف بنى إسرائيل أمام الأرض المقدسة لا يدخلون لأن فيها قوما جبارين . وفى سورة الكهف كانت كذلك حلقة واحدة : حلقة لقاء موسى للعبد الصالح وصحبته فترة . .

فأما فى البقرة والأعراف ويونس وفى هذه السورة ـ طه ـ فقد وردت منها حلقات كثيرة. ولكن هذه الحلقات تختلف فى سورة عنها فى الأخرى . تختلف الحلقات المعروضة ، كما يختلف الجانب الذى تعرض منه تنسيقا له مع اتجاه السورة التى يعرض فيها .

فى البقرة سبقتها قصة آدم وتكريمه فى الملأ الأعلى ، وعهد الله إليه بخلافة الأرض ونعمته عليه بعد ماغفر له . . فجاءت قصة موسى وبنى اسرائيل تذكيرا لبنى إسرائيل بنعمة الله عليهم وعهده إليهم وإنجائهم من فرعون وملئه . واستسقائهم وتفجير الينابيع لهم وإطعامهم المن والسلوى، وذكرت مواعدة موسى وعبادتهم للعجل من بعده ، ثم غفرانه لهم . وعهده إليهم تحت الجبل . ثم عدوانهم فى السبت . وقصة البقرة .

وفى الأعراف سبقها الإنذار وعواقب المكذبين بالآيات قبل موسى ـ عليه السلام ـ فجاءت قصة موسى تعرض ابتداء من حلقة الرسالة ، وتعرض فيها آيات العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم . وتعرض حلقة السحرة بالتفصيل ، وخاتمة فرعون وملئه المكذبين . ثم ما كان من بنى اسرائيل بعد ذلك من اتخاذ العجل فى غيبة موسى . وتنتهى القصة بإعلان فيها وراثة رحمة الله وهداه للذين يتبعون الرسول النبى الأمى .

وفى يونس سبقها عرض مصارع المكذبين . فجاءت قصة موسى من حلقة الرسالة، وعرض مشهد السحرة ، ومصرع فرعون وقومه بالتفصيل .

أما هنا فى طه . فقد سبقها مطلع السورة يشف عن رحمة الله ورعايته لمن يصطفيهم لحمل رسالته وتبليغ دعوته . فجاءت القصة مظللة بهذا الظل تبدأ بمشهد المناجاة ؛ وتضمن نماذج من رعاية الله لموسى عليه السلام وتثبيته وتأييده ؛ وتشير إلى سبق هذه الرعاية للرسالة ، فقد كانت ترافقه فى طفولته ، فتحرسه وتتعهده : « وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عينى » . .

فلنأخذ فى تتبع حلقات القصة كما وردت فى السياق .

* * *

« وهل أتاك حديث موسى . إذ رأى نارا فقال لأهله : امكثوا إنى آنست نارا ، لعلى آتيكم منها بقبس ، أو أجد على النار هدى » ..

« وهل أتاك حديث موسى ؟ » وما يتجلى فيه من رعاية الله وهداه لمن اصطفاه ؟ ..

فهاهو ذا موسى — عليه السلام — فى الطريق بين مدين ومصر إلى جانب الطور . هاهو ذا عائد بأهله بعد أن قضى فترة التعاقد بينه وبين نبى الله شعيب ، على أن يزوجه إحدى ابنتيه فى مقابل أن يخدمه ثمانى سنوات أو عشرا . والأرجح أنه وفى عشرا ؛ ثم خطر له أن يفارق شعيبا وأن يستقل بنفسه وبزوجه ، ويعود إلى البلد الذى نشأ فيه ، والذى فيه قومه بنو إسرائيل يعيشون تحت سياط فرعون وقهره[1] .

لماذا عاد . وقد خرج من مصر طريدا . قتل قبطيا فيها حين رآه يقتتل مع اسرائيلى ، وغادر مصر هاربا وبنو إسرائيل فيها يسامون العذاب ألوانا ؟ حيث وجد الأمن والطمأنينة فى مدين إلى جوار شعيب صهره الذى آواه وزوجه إحدى ابنتيه ؟

إنها جاذبية الوطن والأهل تتخذها القدرة ستارا لما تهيئه لموسى من أدوار .. وهكذا نحن فى هذه الحياة تتحرك . تحركنا أشواق وهواتف ، ومطامح ومطامع ، وآلام وآمال . . وإن هى إلا الأسباب الظاهرة للغاية المضمرة ، والستار الذى تراه العيون لليد التى لا تراها الأنظار ولا تدركها الأبصار . يد المدبر المهيمن العزيز القهار ..

وهكذا عاد موسى . وهكذا ضل طريقه فى الصحراء ومعه زوجه وقد يكون معهما خادم . ضل طريقه والليل مظلم ، والمتاهة واسعة . نعرف هذا من قوله لأهله : « امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى » . . فأهل البادية يوقدون النار عادة على مرتفع من الأرض ، ليراها السارى فى الصحراء ، فتكشف له عن الطريق ، أو يجد عندها القرى والضيافة ومن يهديه إلى الطريق .

ولقد رأى موسى النار فى الفلاة . فاستبشر . وذهب ليأتى منها بقبس يستدفىء به أهله ، فالليلة باردة وليالى الصحراء باردة قارة . أو ليجد عندها من يهديه إلى الطريق ؛ أو يهتدى على ضوئها إلى الطريق .

لقد ذهب يطلب قبسا من النار ؛ ويطلب هاديا فى السرى . . ولكنه وجد المفاجأة

---

(١) ورد هذا فى الحلقات الأولى من قصة موسى فى سورة القصص . وهى سابقة فى النزول على سورة طه .

الـكبرى . إنها النار التى تدفىء . لا الأجسام ولـكن الأرواح . النار التى تهدى لا فى السرى ولـكن فى الرحلة الـكبرى :

« فلما أتاها نودى : ياموسى إنى أنا ربك . فاخلع نعليك . إنك بالوادى المقدس طوى . وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى . إننى أنا الله لا إله إلا أنا ، فاعبدنى وأقم الصـلاة لذكرى . إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى . فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بهـا واتبع هواه فتردى » ..

إن القلب ليجفُ ، وإن الـكيان ليرتجف . وهو يتصور ــ مجرد تصور ــ ذلك المشهد.. موسى فريد فى تلك الفلاة . والليل دامس ، والظلام شامل ، والصمت مخيم . وهو ذاهب يلتمس النار التى آنسها من جانب الطور . ثم إذا الوجود كله من حوله يتجاوب بذلك النداء : « إنى أنا ربك فاخلع نعليك . إنك بالوادى المقدس طوى وأنا اخترتك .. »

إن تلك الذرة الصغيرة الضعيفة المحدودة تواجه الجلال الذى لا تدركه الأبصار . الجلال الذى تتضـاءل فى ظله الأرض والسماوات . ويتلقى . يتلقى ذلك النـداء العلوى بالـكيان البشرى . . فـكيف ؟ كيف لولا لطف الله ؟

إنها لحظة ترتفع فيها البشرية كلها وتكبر ممثلة فى موسى ــ عليه السلام ــ فبحسب الـكيان البشرى أن يطيق التلقى من ذلك الفيض لحظة . وبحسب البشرية أن يكون فيها الاستعداد لمثل هــذا الاتصال على نحو من الأنحاء .. كيف ؟ لا ندرى كيف ! فالعقل البشرى ليس هنا ليدرك ويحـكم ، إنما قصاراه أن يقف مبهوتا يشهد ويؤمن !

« فلما أتاها نودى ياموسى : إنى أنا ربك .. » نودى . بهذا البناء للمجهول . فما يمكن تحديد مصدر النداء ولا اتجاهه . ولا تعيين صورته ولا كيفيته . ولا كيف سمعه موسى أو تلقاه . . نودى بطريقة ما فتلقى بطريقة ما . فذلك من أمر الله الذى نؤمن بوقوعه ، ولا نسأل عن كيفيته ، لأن كيفيته وراء مدارك البشر وتصورات الإنسان .

« ياموسى إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادى المقدس طوى[1] » . . إنك فى الحضرة العلوية . فتجرد بقدميك . وفى الوادى الذى تتجلى عليه الطلعة المقدسة ، فلا تطأه بنعليك .

« وأنا اخترتك » . . فيا للتكريم ! ياللتـكريم أن يكون الله بذاته هو الذى يختار . يختار عبدا من العبيد هو فرد من جموع الجموع .. تعيش على كوكب من الـكواكب هو ذرة فى مجموعة . المجموعة هى ذرة فى الـكون الـكبير الذى قال له الله : كن .. فـكان ! ولـكنها رعاية الرحمان لهذا الإنسان !

(١) قيل : إنها اسم الوادى . وقيل : إنها وصف له .

وبعد إعلانه بالتكريم والاختيار ، والاستعداد والتهيؤ بخلع نعليه ، يجيء التنبيه للتلقى :

« فاستمع لما يوحى » . .

ويلخص ما يوحى فى ثلاثة أمور مترابطة : الاعتقاد بالوحدانية ، والتوجه بالعبادة ، والإيمان بالساعة ؛ وهى أسس رسالة الله الواحدة :

« إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى . إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى . فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى » . .

فأما الألوهية الواحدة فهى قوام العقيدة . والله فى ندائه لموسى ــ عليه السلام ــ يؤكدها بكل المؤكدات : بالإثبات المؤكد : « إننى أنا الله » وبالقصر المستفاد من النفى والاستثناء : « لا إله إلا أنا » الأولى لإثبات الألوهية لله ، والثانية لنفيها عن سواه . . وعلى الألوهية تترتب العبادة ؛ والعبادة تشمل التوجه لله فى كل نشاط الحياة ؛ ولكنه يخص بالذكر منها الصلاة : « وأقم الصلاة لذكرى » لأن الصلاة أكمل صورة من صور العبادة ، وأكمل وسيلة من وسائل الذكر ، لأنها تتمحض لهذه الغاية ، وتتجرد من كل الملابسات الأخرى ؛ وتتهيأ فيها النفس لهذا الغرض وحده ، وتتجمع للاتصال بالله .

فأما الساعة فهى الموعد المرتقب للجزاء الكامل العادل ، الذى تتوجه إليه النفوس فتحسب حسابه ؛ وتسير فى الطريق وهى تراقب وتحاسب وتخشى الانزلاق . . والله سبحانه يؤكد مجيئها : « إن الساعة آتية » وأنه يكاد يخفيها . فعلم الناس بها قليل لا يتجاوز ما يطلعهم عليه من أمرها بقدر ما يحقق حكمته من معرفتهم ومن جهلهم . . والمجهول عنصر أساسى فى حياة البشر وفى تكوينهم النفسى . فلابد من مجهول فى حياتهم يتطلعون إليه . ولو كان كل شىء مكشوفا لهم ــ وهم بهذه الفطرة ــ لوقف نشاطهم وأسنت حياتهم . فوراء المجهول يجرون . فيحذرون ويأملون ، ويجربون ويتعلمون . ويكشفون المخبوء من طاقاتهم وطاقات الكون من حولهم ؛ ويرون آيات الله فى أنفسهم وفى الآفاق ؛ ويبدعون فى الأرض بما شاء لهم الله أن يبدعوا . . وتعليق قلوبهم ومشاعرهم بالساعة المجهولة الموعد ، يحفظهم من الشرود ، فهم لا يدرون متى تأتى الساعة ، فهم من موعدها على حذر دائم وعلى استعداد دائم . ذلك لمن صحت فطرته واستقام . فأما من فسدت فطرته واتبع هواه فيغفل ويجهل ، فيسقط ومصيره إلى الردى :

« فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى » . .

ذلك أن اتباع الهوى هو الذى ينشىء التكذيب بالساعة . فالفطرة السليمة تؤمن من نفسها بأن الحياة الدنيا لا تبلغ فيها الإنسانية كمالها ، ولا يتم فيها العدل تمامه ؛ وأنه لابد من حياة أخرى يتحقق فيها الكمال المقدر للإنسان ، والعدل المطلق فى الجزاء على الأعمال .

* * *

هذه هى الوهلة الأولى للنداء العلوى الذى تجاوبت به جنبات الوجود ؛ وأنهى الله سبحانه إلى عبده المختار قواعد التوحيد . ولا بد أن موسى قد نسى نفسه ونسى ما جاء من أجله ، ليتبع ذلك الصوت العلوى الذى ناداه ؛ وليسمع التوجيه القدسى الذى يتلقاه . وبينما هو مستغرق فيما هو فيه ، ليس فى كيانه ذرة واحدة تتلفت إلى سواه ، إذا هو يتلقى سؤالا لايحتاج منه إلى جواب :

« وما تلك بيمينك يا موسى ؟ » . .

إنها عصاه . ولكن أين هو من عصاه ؟ إنما يتذكر فيجيب :

« قال : هى عصاى ، أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى » . .

والسؤال لم يكن عن وظيفة العصا فى يده . إنما كان عما فى يمينه . ولكنه أدرك أن ليس عن ماهيتها يسأل ، فهى واضحة ، إنما عن وظيفتها معه . فأجاب . .

ذلك أقصى ما يعرفه موسى عن تلك العصا : أن يتوكأ عليها وأن يضرب بها أوراق الشجر لتتساقط فتأكلها الغنم — وقد كان يرعى الغنم لشعيب . وقيل : إنه ساق معه فى عودته قطيعا منها كان من نصيبه . . وأن يستخدمها فى أغراض أخرى من هذا القبيل أجملها ولم يعددها لأن ما ذكره نموذج منها .

ولكن ها هى ذى القدرة القادرة تصنع بتلك العصا فى يده ما لم يخطر له على بال ، تمهيدا لتكليفه بالمهمة الكبرى :

« قال : ألقها يا موسى . فألقاها . فإذا هى حية تسعى . قال : خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى » :

ووقعت المعجزة الخارقة التى تقع فى كل لحظة ؛ ولكن الناس لا ينتبهون إليها . وقعت

معجزة الحياة . فإذا العصا حية تسعى . وكم من ملايين الذرات الميتة أو الجامدة كالعصا تتحول فى كل لحظة إلى خلية حية ؛ ولكنها لا تبهر الإنسان كما يبهره أن تتحول عصا موسى حية تسعى ! ذلك أن الإنسان أسير حواسه ، وأسير تجاربه، فلا يبعد كثيرا فى تصوراته عما تدركه حواسه . وانقلاب العصا حية تسعى ظاهرة حسية تصدم حسه فينتبه لها بشدة . أما الظواهر الخفية لمعجزة الحياة الأولى ، ومعجزات الحياة التى تدب فى كل لحظة فهى خفية قلما يلتفت إليها . وبخاصة أن الألفة تفقدها جدتها فى حسه ، فيمر عليها غافلا أو ناسيا .

وقعت المعجزة فدهش لها موسى وخاف : « قال : خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى » وردها عصا .

والسياق هنا لا يذكر ما ذكره فى سورة أخرى من أنه ولى مدبرا ولم يعقب . إنما يكتفى بالإشارة الخفيفة إلى ما نال موسى ـ عليه السلام ـ من خوف : ذلك أن ظل هذه السورة ظل أمن وطمأنينة ، فلا يشوبه بحركة الفزع والجرى والتولى بعيدا .

واطمأن موسى والتقط الحية ، فإذا هى تعود سيرتها الأولى ! عصا ! .. ووقعت المعجزة فى صورتها الأخرى . صورة سلب الحياة من الحى ، فإذا هو جامد ميت ، كما كان قبل أن تدركه المعجزة الأولى . .

وصدر الأمر العلوى مرة أخرى إلى عبده موسى :

« واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء . آية أخرى » ..

ووضع موسى يده تحت إبطه . . والسياق يختار للإبط والذراع صورة الجناح لما فيها من رفرفة وطلاقة وخفة فى هذا الموقف المجنح الطليق من ربقة الأرض وثقلة الجسم لتخرج بيضاء لا عن مرض أو آفة . ولكن : « آية أخرى » مع آية العصا . « لنريك من آياتنا الكبرى » فتشهد وقوعها بنفسك تحت بصرك وحسك . فتطمئن للنهوض بالتبعة الكبرى :

« اذهب إلى فرعون إنه طغى » . .

وإلى هنا لم يكن موسى يعلم أنه منتدب لهذه المهمة الضخمة . . وإنه ليعرف من هو فرعون : فقد ربى فى قصره . وشهد طغيانه وجبروته . وشاهد ما يصبه على قومه من عذاب

ونكال . . وهو اللحظة فى حضرة ربه . يحس الرضى والتكريم والحفاوة . فليسأله كل ما يطمئنه على مواجهة هذه المهمة العسيرة ؟ ويكفل له الاستقامة على طريق الرسالة :

« قال : رب اشرح لى صدرى . ويسر لى أمرى . واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى . واجعل لى وزيرا من أهلى ، هارون أخى . اشدد به أزرى ، وأشركه فى أمرى . كى نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا . إنك كنت بنا بصيرا » . .

لقد طلب إلى ربه أن يشرح له صدره . . وانشراح الصدر يحول مشقة التكليف إلى متعة ، ويحيل عناءه لذة ؛ ويجعله دافعا للحياة لا عبئاً يثقل خطى الحياة .

وطلب إلى ربه أن ييسر له أمره .. وتيسير الله لعباده هو ضمان النجاح . وإلا فماذا يملك الإنسان بدون هذا التيسير ؟ ماذا يملك وقواه محدودة وعلمه قاصر والطريق طويل وشائك ومجهول ؟! .

وطلب إلى ربه أن يحل عقدة لسانه فيفقهوا قوله . . وقد روى أنه كانت بلسانه حبسةوالأرجح أن هذا هو الذى عناه. ويؤيده ماورد فى سورة أخرى من قوله : « وأخى هارون هو أفصح منى لسانا » . وقد دعا ربه فى أول الأمر دعاء شاملا بشرح الصدر وتيسير الأمر . ثم أخذ يحدد ويفصل بعض مايعينه على أمره وييسر له تمامه .

وطلب أن يعينه الله بمعين من أهله . هارون أخيه . فهو يعلم منه فصاحة اللسان وثبات الجنان وهدوء الأعصاب ، وكان موسى ـ عليه السلام ـ انفعاليا حاد الطبع سريع الانفعال . فطلب إلى ربه أن يعينه بأخيه يشد أزره ويقويه ويتروى معه فى الأمر الجليل الذى هو مقدم عليه .

والأمر الجليل الذى هو مقدم عليه يحتاج إلى التسبيح الكثير والذكر الكثير والاتصال الكثير . فموسى ـ عليه السلام ـ يطلب أن يشرح الله صدره وييسر له أمره ويحل عقدة من لسانه ويعينه بوزير من أهله . . كل أولئك لا ليواجه المهمة مباشرة ؛ ولكن ليتخذ ذلك كله مساعدا له ولأخيه على التسبيح الكثير والذكر الكثير والتلقى الكثير من السميع البصير . . «إنك كنت بنا بصيرا» .. تعرف حالنا وتطلع على ضعفنا وقصورنا ،وتعلم حاجتنا إلى العون والتدبير . .

لقد أطال موسى سؤاله ، وبسط حاجته ، وكشف عن ضعفه ، وطلب العون والتيسير والاتصال الكثير . وربه يسمع له ، وهو ضيف فى حضرته ، ناداه وناجاه . فها هو ذا الكريم

المنان لايخجل ضيفه ، ولا يرد سائله ، ولا يبطىء عليه بالإجابة الكاملة :

« قال : قد أوتيت سؤلك ياموسى » :

هكذا مرة واحدة ، فى كلمة واحدة . فيها إجمال يغنى عن التفصيل . وفيها إنجاز لاوعد ولاتأجيل . . كل ماسألته أعطيته . أعطيته فعلا . لاتعطاه ولاستعطاه ؟ وفيها مع الانجاز عطف وتكريم وإيناس بندائه باسمه : « ياموسى » وأى تكريم أكبر من أن يذكر الكبير المتعال اسم عبد من العباد ؟

وإلى هنا كفاية وفضل من التكريم والعطف والإيناس . وقد طال التجلى ؛ وطال النجاء؛ وأجيب السؤل وقضيت الحاجة . . ولكن فضل الله لاخازن له ، ورحمة الله لاممسك لها . فهو يغمر عبده بمزيد من فضله وفيض من رضاه ، فيستبقيه فى حضرته ، ويمد فى نجائه وهو يذكره بسابق نعمته ، لزيده اطمئنانا وأنسا بموصول رحمته وقديم رعايته . وكل لحظة تمروهو فى هذا المقام الوضىء هى متاع ونعمى وزاد ورصيد .

« ولقد مننا عليك مرة أخرى . إذ أوحينا إلى أمك مايوحى . أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم . فليلقه اليم بالساحل ، يأخذه عدو لى وعدو له . وألقيت عليك محبة منى ،ولتصنع على عينى . إذ تمشى أختك فتقول : هل أدلكم على من يكفله ؟ فرجعناك إلى أمك كى تقر عينها ولاتحزن . وقتلت نفسا فنجيناك من الغم وفتناك فتونا ، فلبثت سنين فى أهل مدين . ثم جئت على قدر ياموسى. واصطنعتك لنفسى ... » .

إن موسى ــ عليه السلام ــ ذاهب لمواجهة أقوى ملك فى الأرض وأطغى جبار . إنه ذاهب لخوض معركة الإيمان مع الطغيان . إنه ذاهب الى خضم من الأحداث والمشكلات مع فرعون أول الأمر ؛ ثم مع قومه بنى اسرائيل وقد أذلهم الاستعباد الطويل وأفسد فطرتهم ، وأضعف استعدادهم للمهمة التى هم منتدبون لها بعد الخلاص . فربه يطلعه على أنه لن يذهب غفلا من التهيؤ والاستعداد . وأنه لم يرسل الا بعد التهيئة والإعداد . وأنه صنع على عين الله منذ زمان ،ودرب على الشاق وهو طفل رضيع ، ورافقته العناية وسهرت عليه وهو صغير ضعيف. وكان تحت سلطان فرعون وفى متناوله وهو مجرد من كل عدة ومن كل قوة فلم تمتد اليه يد فرعون ،لأن يد القدرة كانت تسنده ، وعين القدرة كانت ترعاه . فى كل خطاه . فلا عليه اليوم من فرعون ، وقد بلغ أشده . وربه معه . قد اصطنعه لنفسه ، واستخلصه واصطفاه .

« ولقد مننا عليك مرة أخرى » .. فالمنة قديمة ممتدة مطردة ، سائرة فى طريقها معك منذ زمان . فلا انقطاع لها إذن بعد التكليف الآن .

لقد مننا عليك إذ أوحينا إلى أمك مايوحى ، وألهمناها مايلهم فى مثل حالها .. ذلك الإلهام:

« أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم فليلقه اليم بالساحل » ..

حركات كلها عنف وكلها خشونة .. قذف فى التابوت بالطفل . وقذف فى اليم بالتابوت . وإلقاء للتابوت على الساحل .. ثم ماذا ؟ أين يذهب التابوت المقذوف فيه بالطفل المقذوف فى اليم الملقى به على الساحل . من يتسلمه ؟ « عدو لى وعدوله »

وفى زحمة هذه المخاوف كلها . وبعد تلك الصدمات كلها . ماذا ؟ ماالذى حدث للطفل الضعيف المجرد من كل قوة ؟ ماالذى جرى للتابوت الصغير المجرد من كل وقاية ؟

« وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عينى » ! ! !

ياللقدرة القادرة التى تجعل من المحبة الهينة اللينة درعا تتكسر عليها الضربات وتتحطم عليه الأمواج . وتعجز قوى الشر والطغيان كلها أن تمس حاملها بسوء ؟ولو كان طفلا رضيعا لا يصول ولا يجول بل لايملك أن يقول . . .

إنها مقابلة عجيبة فى تصوير المشهد . مقابلة بين القوى الجبارة الطاغية التى تتربص بالطفل الصغير ، والخشونة القاسية فيما يحيط به من ملابسات وظروف . . والرحمة اللينـة اللطيفة تحرسه من المخاوف ، وتقيه من الشدائد وتلفه من الخشونة ، ممثلة فى المحبة لافى صيال أو نزال :

« ولتصنع على عينى » . . وما من شرح يمكن أن يضيف شيئا إلى ذلك الظل الرفيق اللطيف العميق الذى يلقيه التعبير القرآنى العجيب : « ولتصنع على عينى » وكيف يصف لسان بشرى ، خلقا يصنع على عين الله ؟ إن قصارى أى بشرى أن يتأمله ويتملاه . . إنها منزلة وإنها كرامة أن ينال إنسان لحظة من العناية . فكيف بمن يصنع صنعا على عين الله ؟ إنه بسبب من هذا أطاق موسى أن يتلقى ذلك العنصر العلوى الذى تلقاه .

ولتصنع على عينى . تحت عين فرعون ـ عدوك وعدوى ـ وفى متناول يده بلا حارس ولا مانع ولا مدافع . ولكن عينه لاتمتد إليك بالشر لأنى ألقيت عليك محبة منى . ويده لا تنالك بالضر وأنت تصنع على عينى .

ولم أحطك فى قصر فرعون ، بالرعاية والحماية وأدع أمك فى بيتها للقلق والخوف . بل جمعتك بها وجمعتها بك :

« إذا تمشى أختك فتقول : هل أدلكم على من يكفله ؟ فرجعناك إلى أمك كى تقر عينها ولا تحزن » . .

وكان ذلك من تدبير الله . إذ جعل الطفل لايقبل ثدى المرضعات . وفرعون وزوجه وقد تبنيا الطفل الذى ألقاه اليم بالساحل ـ مما لا يفصله السياق كما يفصله فى موضع آخر ـ يبحثان له عن مرضع . فيتسامع الناس وتروح أخت موسى بإيحاء من أمها تقول لهم : هل أدلكم على من يكفله ؟ وتجىء لهم بأمه فيلقم ثديها . وهكذا يتم تدبير الله للطفل وأمه التى سمعت الإلهام فقذفت بفلذة كبدها فى التابوت ، وقذفت بالتابوت فى اليم ، فألقاه اليم بالساحل . ليأخذه عدو لله وله ، فيكون الأمن بإلقائه بين هذه المخاوف ، وتكون النجاة من فرعون الذى كان يذبح أطفال بنى إسرائيل . بإلقائه بين يدى فرعون بلا حارس ولا معين !

ومنة أخرى : « وقتلت نفسا فنجيناك من الغم ، وفتناك فتونا فلبثت سنين فى أهل مدين ثم جئت على قدر ياموسى . واصطنعتك لنفسى » . .

ذلك حين كبر وشب فى قصر فرعون ، ثم نزل المدينة يوما فوجد فيها رجلين يقتتلان أحدهما إسرائيلى والآخر مصرى ، فاستعانه الإسرائيلى فوكز المصرى بيده فخر صريعا . ولم يكن ينوى قتله إنما كان ينوى دفعه . فامتلأت نفسه بالغم على هذه الفعلة ـ وهو المصنوع على عين الله منذ نشأته ؛ وتحرج ضميره وتأثم من اندفاعه .. فربه يذكره هنا بنعمته عليه ، إذ هداه إلى الاستغفار فشرح صدره بهذا ونجاه من الغم . ولم يتركه مع هذا بلا ابتلاء ليربيه ويعده لما أراد ؛ فامتحنه بالخوف والهرب من القصاص ؟ وامتحنه بالغربة ومفارقة الأهل والوطن ؛ وامتحنه بالخدمة ورعى الغنم ، وهو الذى تربى فى قصر أعظم ملوك الأرض ، وأكثرهم ترفا ومتاعا وزينة . .

وفى الوقت المقدر . عندما نضج واستعد ، وابتلى فثبت وصبر ؛ وامتحن فجاز الامتحان . وتهيأت الظروف كذلك والأحوال فى مصر ، وبلغ العذاب ببنى إسرائيل مداه . .

فى ذلك الوقت المقدر فى علم الله جىء بموسى من أرض مدين ، وهو يظن أنه هو جاء : « فلبثت سنين فى أهل مدين ثم جئت على قدر ياموسى »

جئت فى الوقت الذى قدرته لمجيئك . . « واصطنعتك لنفسى » خالصا مستخلصا ممحضا لى ولرسالتى ودعوتى . . ليس بك شىء من هذه الدنيا ولا لهذه الدنيا . إنما أنت للمهمة التى صنعتك على عينى لها واصطنعتك لتؤديها . فما لك فى نفسك شىء . وما لأهلك منك شىء ، وما لأحد فيك شىء . فامض لما اصطنعتك له :

« اذهب أنت وأخوك بآياتى ولا تنيا فى ذكرى . اذهبا إلى فرعون إنه طغى . فقولا له : قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى » . .

اذهب أنت وأخوك مزودين بآياتى وقد شهد منها آية العصا وآية اليد ــ ، ولا تنيا فى ذكرى فهو عدتكما وسلاحكما وسندكما الذى تأويان منه إلى ركن شديد . . اذهبا إلى فرعون . وقد حفظتك من شره من قبل . وأنت طفل وقد قذفت فى التابوت ، فقذف التابوت فى اليم ، فألقاه اليم بالساحل ، فلم تضرك هذه الخشونة ، ولم تؤذك هذه المخاوف . فالآن أنت معد مهيأ ، ومعك أخوك . فلا عليك وقد نجوت مما هو أشد ، فى ظروف أسوأ وأعنف .

اذهبا إلى فرعون فقد طغى وتجبر وعتا « فقولا له قولا لينا » فالقول اللين لا يثير العزة بالإثم ؛ ولا يهيج الكبرياء الزائف الذى يعيش به الطغاة . ومن شأنه أن يوقظ القلب فيتذكر ويخشى عاقبة الطغيان .

اذهبا إليه غير يائسين من هدايته ، راجيين أن يتذكر ويخشى . فالداعية الذى ييأس من اهتداء أحد بدعوته لا يبلغها بحرارة ، ولا يثبت عليها فى وجه الجحود والإنكار .

وإن الله ليعلم مايكون من فرعون . ولكن الأخذ بالأسباب فى الدعوات وغيرها لا بد منه . والله يحاسب الناس على مايقع منهم بعد أن يقع فى عالمهم . وهو عالم بأنه سيكون . فعلمه تعالى بمستقبل الحوادث كعلمه بالحاضر منها والماضى فى درجة سواء .

* * *

وإلى هنا كان الخطاب لموسى ــ عليه السلام ــ وكان المشهد هو مشهد المناجاة فى الفلاة . وهنا يطوى السياق المسافات والأبعاد والأزمان ، فإذا هارون مع موسى . وإذا هما معا يكشفان

ربهما عن خوفهما من مواجهة فرعون ، ومن التسرع فى أذاه ، ومن طغيانه إذا دعواه :

« قالا : ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى . قال : لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى . فأتياه فقولا : إنا رسولا ربك فأرسل معنا بنى اسرائل ولا تعذبهم . قد جئناك بآية من ربك . والسلام على من اتبع الهدى . إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى » .

وهارون لم يكن مع موسى قطعا فى موقف المناجاة الطويل — الذى تفضل النعم فيه على عبده ، فأطال له فيه النجاء ، وبسط له فى القول ، وأوسع له فى السؤال والجواب — فردهما معا بقولهما : « إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى » لم يكن فى موقف المناجاة . إنما هو السياق القرآنى يطوى الزمان والمكان ، ويترك فجوات بين مشاهد القصص ، تعلم من السياق ليصل مباشرة إلى المواقف الحية الموحية ذات الأثر فى سير القصص وفى وجدان الناس .

ولقد اجتمع موسى وهارون عليهما السلام إذن بعد انصراف موسى من موقف المناجاة بجانب الطور . وأوحى الله إلى هارون بمشاركة أخيه فى دعوة فرعون ثم هاهما ذان يتوجهان إلى ربهما بمخاوفهما : « قالا : ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى » .

والفرط هو التسرع بالأذى للوهلة الأولى ، والطغيان أشمل من التسرع وأشمل من الأذى . وفرعون الجبار يومئذ لا يتحرج من أحدهما أو كليهما .

هنا يجيئهما الرد الحاسم الذى لا خوف بعده ، ولا خشية معه :

« قال : لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى » . .

إننى معكما . . إنه القوى الجبار الكبير المتعال . إنه الله القاهر فوق عباده . إنه موجد الأكوان والحيوات والأفراد والأشياء بقولة : كن . ولا زيادة . . إنه معهما . . وكان هذا الإجمال يكفى . ولكنه يزيدهما طمأنينة ، ولمسا بالحس للمعونة : « أسمع وأرى . . » فما يكون فرعون وما ملك وما يصنع حين يفرط أو يطغى ؟ والله معهما يسمع ويرى ؟

ومع الطمأنينة الهداية إلى صورة الدعوة وطريق الجدال :

« فأتياه فقولا : إنا رسولا ربك . فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم . قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى . إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى » . .

إنه البدء بإيضاح قاعدة رسالتهما : «إنا رسولا ربك» ليشعر منه اللحظة الأولى بأن هناك إلها هو ربه . وهو رب الناس . فليس هو إلها خاصا بموسى وهارون أو ببنى اسرائيل ، كما كان سائدا فى خرافات الوثنية يومذاك أن لكل قوم إلها أو آلهة، ولكل قبيل إلها أو آلهة . أو كما كان سائدا فى بعض العصور من أن فرعون مصر إله يعبد فيها لأنه من نسل الآلهة .

ثم إيضاح لموضوع رسالتهما : « فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم » .. ففى هذه الحدود كانت رسالتهما إلى فرعون . لاستنقاذ بنى اسرائيل ، والعودة بهم إلى عقيدة التوحيد ، وإلى الأرض المقدسة التى كتب الله لهم أن يسكنوها (إلى أن يفسدوا فيها ، فيدمرهم تدميرا)

ثم استشهاد على صدقهما فى الرسالة : « قد جئناك بآية من ربك » تدل على صدقنا فى مجيئنا إليك بأمر ربك ، فى هذه المهمة التى حددناها .

ثم ترغيب واستمالة : « والسلام على من اتبع الهدى » : فلعله منهم يتلقى السلام ويتبع الهدى

ثم تهديد وتحذير غير مباشرين كى لا يثيرا كبرياءه وطغيانه : «إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى » .. فلعله لا يكون ممن كذب وتولى !

هكذا ألقى الله الطمأنينة على موسى وهارون . وهكذا رسم لهما الطريق . ودبر لهما الأمر. ليمضيا آمنين عارفين هاديين .

وهنا يسدل الستار ليرفع . فإذا هما أمام الطاغية فى حوار وجدال .

* * *

لقد أتيا فرعون ـ والسياق لا يذكر كيف وصلا إليه ـ أتياه وربهما معهما يسمع ويرى . فأية قوة وأى سلطان هذا الذى يتكلم به موسى وهارون ، كائنا فرعون ما كان ؟ ولقد أبلغاه ما أمرهما ربهما بتبليغه . والمشهد هنا يبدأ بما دار بينه وبين موسى ـ عليه السلام ـ من حوار:

« قال : فمن ربكما يا موسى ؟ قال : ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى » . .

إنه لا يريد أن يعترف بأن رب موسى وهارون هو ربه ، كما قالا له : «إنا رسولا ربك» فهو يسأل موجها الكلام إلى موسى لما بدا له أنه هو صاحب الدعوى : « فمن ربكما يا موسى؟» من ربكما الذى تتكلمان باسمه وتطلبان اطلاق بنى اسرائيل ؟

فأما موسى ـ عليه السلام ـ فيرد بالصفة المبدعة المنشئة المدبرة من صفات الله تعالى :
« قال : ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى » . . ربنا الذى وهب الوجود لكل موجود فى الصورة التى أوجده بها وفطره عليها . ثم هدى كل شىء إلى وظيفته التى خلقه لها ؛ وأمده بما يناسب هذه الوظيفة ويعينه عليها . وثم هنا ليست للتراخى الزمنى . فكل شىء مخلوق ومعه الاهتداء الطبيعى الفطرى للوظيفة التى خلق لها ،وليس هناك افتراق زمنى بين خلق المخلوق وخلق وظيفته . إنما هو التراخى فى الرتبة بين خلق الشىء واهتدائه إلى وظيفته ؛ فهداية كل شىء إلى وظيفته مرتبة أعلى من خلقه غفلا . .

وهذا الوصف الذى يحكيه القرآن الكريم عن موسى ـ عليه السلام ـ يلخص أكمل آثار الألوهية الخالقة المدبرة لهذا الوجود: هبة الوجود لكل موجود . وهبة خلقه على الصورة التى خلق بها . وهبة هدايته للوظيفة التى خلق لها . . وحين يجول الإنسان ببصره وبصيرته ـ فى حدود ما يطيق ـ فى جنبات هذا الوجود الكبير تتجلى له آثار تلك القدرة المبدعة المدبرة فى كل كائن صغير أو كبير . من الذرة المفردة الى أضخم الأجسام ، ومن الخلية الواحدة إلى أرقى أشكال الحياة فى الانسان .

هذا الوجود الكبير المؤلف مما لا يحصى من الذرات والخلايا ، والخلائق والأحياء ؛ وكل ذرة فيه تنبض ، وكل خلية فيه تحيا ، وكل حى فيه يتحرك ، وكل كائن فيه يتفاعل أو يتعامل مع الكائنات الأخرى ... وكلها تعمل منفردة ومجتمعة داخل إطار النواميس المودعة فى فطرتها وتكوينها بلا تعارض ولا خلل ولا فتور فى لحظة من اللحظات !

وكل كائن بمفرده كون وحده وعالم بذاته ، تعمل فى داخله ذراته وخلاياه وأعضاؤه وأجهزته وفق الفطرة التى فطرت عليها ، داخل حدود الناموس العام ، فى توافق وانتظام .

وكل كائن بمفرده ـ ودعك من الكون الكبير ـ يقف علم الإنسان وجهده قاصرا محدودا فى دراسة خواصه ووظائفه وأمراضه وعلاجه . دراستها مجرد دراسة لا خلقها ولا هدايتها إلى وظائفها ، فذلك خارج كلية عن طوق الإنسان . وهو خلق من خلق الله .. وهبه وجوده ، على الهيئة التى وجد بها ؟ للوظيفة التى خلق لها ، كأى شىء من هاته الأشياء !

إلا أنه للاله الواحد .. ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ..

وثنى فرعون بسؤال آخر :

« قال : فما بال القرون الأولى ؟ » .

ما شأن القرون التى مضت من الناس ؟ أين ذهبت ؟ ومن كان ربها ؟ وما يكون شأنها وقد هلكت لا تعرف إلهها هـذا ؟

« قال : علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى » ..

بهـذا أحال موسى ذلك الغيب البعيد فى الزمان ، الخافى عن العيان ، إلى ربه الذى لا يفوت علمه شىء ولا ينسى شيئا . فهو الذى يعلم شأن تلك القرون كله . فى ماضيها وفى مستقبلها . والغيب لله والتصرف فى شأن البشر لله .

ثم يستطرد فيعرض على فرعون آثار تدبير الله فى الكون وآلائه على بنى الإنسان . فيختار بعض هـذه الآثار المحيطة بفرعون ، المشهودة له فى مصر ذات التربة الخصبة والمـاء الموفور والزروع والأنعام :

« الذى جعل لكم الأرض مهدا ، وسلك لكم فيها سبلا ، وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى . كلوا وارعوا أنعامكم . إن فى ذلك لآيات لأولى النهى » . .

والأرض كلها مهد للبشر فى كل مكان وزمان . مهد كمهد الطفل . وما البشر إلا أطفال هـذه الأرض . يضمهم حضنها ويغذوهم درها ! وهى ممهدة لهم كذلك للسير والحرث والزرع والحياة . جعلها الخالق المدبر كذلك يوم أعطى كل شىء خلقه . فأعطى هـذه الأرض خلقها على الهيئة التى خلقت بها صالحة للحياة التى قدرها فيها ؛ وأعطى البشر خلقهم كذلك على الهيئة التى خلقهم بهـا صالحين للحياة فى هـذه الأرض التى مهدها لهم وجعلها مهدهم . . المعنيان متقاربان متصلان .

وصورة المهد وصفة التمهيد لا تبدو فى بقعة من الأرض كما تبدو فى مصر . ذلك الوادى الخصيب الأخضر السهل الممهد الذى لا يحوج أهله إلا إلى أيسر الكد فى زرعه وجناه . وكأنما هو المهد الحانى على الطفل يضمه ويرعاه !

والخالق المدبر الذى جعل الأرض مهدا ، شق للبشر فيها طرقا وأنزل من السماء ماء . ومن ماء المطر تتكون الأنهار وتفيض — ومنها نهر النيل القريب من فرعون — فيخرج النبات أزواجا من أجناس كثيرة . ومصر أظهر نموذج لإخراج النبات لطعام الإنسان ورعى الحيوان .

وقد شاء الخالق المدبر أن يكون النبات أزواجا كسائر الأحياء . وهى ظاهرة مطردة فى الأحياء كلها . والنبات فى الغالب يحمل خلايا التذكير ، وخلايا التأنيث فى النبتة الواحـدة

وأحيانا يكون اللقاح فى نبتة ذكر منفردة كما هو الحال فى الفصائل الحيوانية . وبذلك يتم التناسق فى نواميس الحياة ويطرد فى كل الفصائل والأنواع . . «إن فى ذلك لآيات لأولى النهى » .. وما من عقل مستقيم يتأمل هذا النظام العجيب ثم لا يطلع فيه على آيات تدل على الخالق المدبر الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى . .

ويكمل السياق حكاية قول موسى بقول مباشر من الله جل وعلا :

«منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى . ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى».

من هذه الأرض التى جعلناها لكم مهدا وسلكنا لكم فيها سبلا وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا به أزواجا من نبات شتى ، للأكل والمرعى .. من هذه الأرض خلقناكم ، وفى هذه الأرض نعيدكم ، ومنها نخرجكم بعد موتكم .

والإنسان مخلوق من مادة هذه الأرض . عناصر جسمه كلها من عناصرها إجمالا . ومن زرعها يأكل ، ومن مائها يشرب ، ومن هوائها يتنفس . وهو ابنها وهى له مهد . وإليها يعود جثة تطويها الأرض ، ورفاتا يختلط بترابها ، وغازا يختلط بهوائها . ومنها يبعث إلى الحياة الأخرى ، كما خلق فى النشأة الأولى .

وللتذكير بالأرض هنا مناسبة فى مشهد الحوار مع فرعون الطاغية المتكبر ، الذى يتسامى إلى مقام الربوبية ؛ وهو من هذه الأرض وإليها ! وهو شىء من الأشياء التى خلقها الله فى الأرض وهداها إلى وظيفتها . . « ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى » أريناه الآيات الكونية التى وجهه إليها موسى ـ عليه السلام ـ فيما حوله ، وآيتى العصا واليد يحملهما هنا لأنهما بعض آيات الله ، وما فى الكون منها أكبر وأبقى . لذلك لا يفصل السياق هنا عرض هاتين الآيتين على فرعون ، فهذا مفهوم ضمنا ، إنما يفصل رده على الآيات كلها فنفهم أنه يشير إليهما . .

« قال : أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى ؟ فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت ، مكانا سوى . قال : موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى » . .

وهكذا لم يمض فرعون فى الجدل ، لأن حجة موسى ـ عليه السلام ـ فيه واضحة وسلطانه فيه قوى ، وهو يستمد حجته من آيات الله فى الكون ، ومن آياته الخاصة معه . . إنما لجأ إلى

اتهام موسى بالسحر الذى يجعل العصا حية تسعى ، ويحيل اليد بيضاء من غير سوء . وقد كان السحر أقرب خاطر إلى فرعون لأنه منتشر فى ذلك الوقت فى مصر ؛ وهاتان الآيتان أقرب فى طبيعتهما إلى المعروف من السحر .. وهو تخييل لا حقيقة ، وخداع للبصر والحواس ، قد يصل إلى خداع الإحساس ، فينشىء فيه آثارا محسوسة كآثار الحقيقة . كما يشاهد من رؤية الإنسان لأشياء لا وجود لها ، أو فى صورة غير صورتها . وما يشاهد من تأثر المسحور أحيانا تأثرات عصبية وجسدية كما لو كان الأثر الواقع عليه حقيقة . . وليس من هذا النوع آيتا موسى . إنما هما من صنع القدرة المبدعة المحولة للأشياء حقا . تحويلا وقتيا أو دائما .

« قال : أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى ؟ »

ويظهر أن استعباد بنى اسرائيل كان إجراء سياسيا خوفا من تكاثرهم وغلبتهم . وفى سبيل الملك والحكم لا يتحرج الطغاة من ارتكاب أشد الجرائم وحشية وأشنعها بربرية وأبعدها عن كل معانى الإنسانية وعن الخلق والشرف والضمير . ومن ثم كان فرعون يستأصل بنى اسرائيل ويذلهم بقتل المواليد الذكور . واستبقاء الإناث ؛ وتسخير الكبار فى الشاق المهلك من الأعمال . . فلما قال له موسى وهارون : أرسل معنا بنى اسرائيل ولا تعذبهم . قال : « أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى ؟» لأن إطلاق بنى إسرائيل تمهيد للاستيلاء على الحكم والأرض .

وإذا كان موسى يطلب إطلاق بنى اسرائيل لهذا الغرض ، وكل مايقدمه هو عمل من أعمال السحر ، فما أسهل الرد عليه : « فلنأتينك بسحر مثله » . . وهكذا يفهم الطغاة أن دعوى أصحاب العقائد إنما تخفى وراءها هدفا من أهداف هذه الأرض ؛ وأنها ليست سوى ستار للملك والحكم .. ثم هم يرون مع أصحاب الدعوات آيات ، إما خارقة كآيات موسى ، وإما مؤثرة فى الناس تأخذ طريقها إلى قلوبهم وإن لم تكن من الخوارق . فإذا الطغاة يقابلونها بما يماثلها ظاهريا .. سحر نأتى بسحر مثله ! كلام نأتى بكلام من نوعه ! صلاح نتظاهر بالصلاح ! عمل طيب نرائى بعمل طيب ! ولا يدركون أن للعقائد رصيدا من الإيمان ، ورصيدا من عون الله ؛ فهى تغلب بهذا وبذاك ، لا بالظواهر والأشكال !

وهكذا طلب فرعون إلى موسى تحديد موعد للمباراة مع السحرة .. وترك له اختيار ذلك الموعد : للتحدى : « فاجعل بيننا وبينك موعدا » وشدد عليه فى عدم إخلاف الموعد زيادة فى التحدى «لا نخلفه نحن ولا أنت» . وأن يكون الموعد فى مكان مفتوح مكشوف : «مكانا سوى» مبالغة فى التحدى !

وقبل موسى ــ عليه السلام ــ تحدى فرعون له ؛ واختار الموعد يوم عيد من الأعياد الجامعة ، يأخذ فيه الناس فى مصر زينتهم ، ويتجمعون فى الميادين والأمكنة المكشوفة : « قال: موعدكم يوم الزينة » . وطلب أن يجمع الناس ضحى ، ليكون المكان مكشوفا والوقت ضاحيا . فقابل التحدى بمثله وزاد عليه اختيار الوقت فى أوضح فترة من النهار وأشدها تجمعا فى يوم العيد . لا فى الصباح الباكر حيث لا يكون الجميع قد غادروا البيوت . ولا فى الظهيرة فقد يعوقهم الحر ، ولا فى المساء حيث يمنعهم الظلام من التجمع أو من وضوح الرؤية .. !!

وانتهى المشهد الأول من مشاهد اللقاء بين الإيمان والطغيان فى الميدان . .

وهنا يسدل الستار ليرفع على مشهد المباراة :

* * *

« فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى » . .

ويجمل السياق فى هذا التعبير كل ما قاله فرعون وما أشار به الملأ من قومه ، وما دار بينه وبين السحرة من تشجيع وتحميس ووعد بالمكافأة ، ومافكر فيه ومادبر هو ومستشاروه .. يجمله فى جملة : فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى . وتصور تلك الآية الواحدة القصيرة ثلاث حركات متواليات : ذهاب فرعون ، وجمع كيده ، والإتيان به .

ورأى موسى ــ عليه السلام ــ قبل الدخول فى المباراة أن يبذل لهم النصيحة ، وأن يحذرهم عاقبة الكذب والافتراء على الله ، لعلهم يثوبون إلى الهدى ، ويدعون التحدى بالسحر والسحر افتراء :

« قال لهم موسى : ويلكم ! لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم[1] بعذاب ، وقد خاب من افترى » .

والكلمة الصادقة تلمس بعض القلوب وتنفذ فيها . ويبدو أن هذا الذى كان ؛ فقد تأثر بعض السحرة بالكلمة المخلصة ، فتلجلج فى الأمر ؛ وأخذ المصرون على المباراة يجادلونهم همسا خيفة أن يسمعهم موسى :

---

(١) يهلككم ويستأصلكم .

« فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى » . .

وجعل بعضهم يحمس بعضا ، وراحوا يهيجون فى المترددين الخوف من موسى وهارون ، اللذين يريدان الاستيلاء على مصر وتغيير عقائد أهلها ؛ مما يوجب مواجهتهما يدا واحدة بلا تردد ولا نزاع . واليوم هو يوم المعركة الفاصلة والذى يغلب فيها الفالح الناجح :

« قالوا : إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى . فأجمعوا كيدكم ثم أتوا صفا . وقد أفلح اليوم من استعلى » . .

وهكذا تنزل الكلمة الصادقة الواحدة الصادرة عن عقيدة ، كالقذيفة فى معسكر المبطلين وصفوفهم ، فتزعزع اعتقادهم فى أنفسهم وفى قدرتهم ، وفى ما هم عليه من عقيدة وفكرة . وتحتاج إلى مثل هذا التحميس والتشجيع. وموسى وأخوه رجلان اثنان ، والسحرة كثيرون ، ووراءهم فرعون وملكه وجنده وجبروته وماله . . ولكن موسى وهارون كان معهما ربهما يسمع ويرى . .

ولعل هذا هو الذى يفسر لنا تصرف فرعون الطاغية المتجبر ، وموقف السحرة ومن ورائهم فرعون . فمن هو موسى ومن هو هارون من أول الأمر حتى يتحداهما فرعون ويقبل تحديهما ، ويجمع كيده ثم يأتى ؟ ويحشر السحرة ويجمع الناس ؟ ويجلس هو والملأ من قومه ليشهدوا المباراة ؟ وكيف قبل فرعون أن يجادله موسى ويطاوله ؟ وموسى فرد من بنى إسرائيل المستعبدين المستذلين تحت قهره ؟ . . إنها الهيبة التى ألقاها الله على موسى وهارون وهو معهما يسمع ويرى . .

وهى كذلك التى جعلت جملة واحدة توقع الارتباك فى صفوف السحرة المدربين ، فتحوجهم إلى التناجى سرا ؛ وإلى تجسيم الخطر ، واستثارة الهمم ، والدعوة إلى التجمع والترابط والثبات .

ثم أقدموا :

« قالوا : يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى » . .

وهى دعوة الميدان إلى النزال . يبدو فيها التماسك وإظهار النصفة والتحدى .

« قال : بل ألقوا » . .

فقبل التحدى ، وترك لهم فرصة البدء ، واستبقى لنفسه الكلمة الأخيرة .. ولكن ماذا؟ إنه لسحر عظيم فيما يبدو ، وحركة مفاجئة ماجت بها الساحة حتى موسى :

« فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى . فأوجس فى نفسه خيفة موسى » ،

والتعبير يشى بعظمة ذلك السحر وضخامته حتى ليوجس فى نفسه خيفة موسى ، ومعه ربه يسمع ويرى . وهو لا يوجس فى نفسه خيفة إلا لأمر جلل ينسيه لحظة أنه الأقوى، حتى يذكره ربه بأن معه القوة الكبرى :

« قلنا : لا تخف . إنك أنت الأعلى . وألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا . إن ما صنعوا كيد ساحر ، ولا يفلح الساحر حيث أتى » . .

لا تخف إنك أنت الأعلى . فمعك الحق ومعهم الباطل . معك العقيدة ومعهم الحرفة . معك الإيمان بصدق ما أنت عليه ومعهم الأجر على المباراة ومغانم الحياة . أنت متصل بالقوة الكبرى وهم يخدمون مخلوقا بشريا فانيا مهما يكن طاغية جبارا .

لا تخف « وألق ما فى يمينك » بهذا التنكير للتضخيم « تلقف ما صنعوا » . فهو سحر من تدبير ساحر وعمله . والساحر لا يفلح أنى ذهب وفى أى طريق سار ، لأنه يتبع تخييلا ويصنع تخييلا ؛ ولا يعتمد على حقيقة ثابتة باقية . شأنه شأن كل مبطل أمام القائم على الحق المعتمد على الصدق . وقد يبدو باطله ضخما فخما ، مخيفا لمن يغفل عن قوة الحق الكامنة الهائلة التى لا تتبختر ولا تتطاول ولا تتظاهر ؛ ولكنها تدمغ الباطل فى النهاية ، فإذا هو زاهق وتلقفه فتطويه ، فإذا هو يتوارى .

وألقى موسى . . ووقعت المفاجأة الكبرى . والسياق يصور ضخامة المفاجأه بوقعها فى نفوس السحرة الذين جاءوا للمباراة فهم أحرص الناس على الفوز فيها ، والذين كانوا منذ لحظة يحمس بعضهم بعضا ويدفع بعضهم بعضاً . والذين بلغت بهم البراعة فى فنهم إلى حد أن يوجس فى نفسه خيفة موسى .

ويخيل إليه — وهو الرسول — أن حبالهم وعصيهم حيات تسعى ! يصور السياق وقع المفاجأة فى نفوسهم فى صورة تحول كامل فى مشاعرهم ووجدانهم ، لا يسعفهم الكلام للتعبير عنه ؛ ولا يكفى النطق للإفضاء به :

« فألقى السحرة سجدا . قالوا : آمنا برب هارون وموسى » . .

إنها اللمسة تصادف العصب الحساس فينتفض الجسم كله . وتصادف « الزر » الصغير فينبعث النور ويشرق الظلام . إنها لمسة الإيمان للقلب البشرى تحوله فى لحظة من الكفر إلى الإيمان .

ولكن أنى للطغاة أن يدركوا هذا السر اللطيف ؟ أنى لهم أن يدركوا كيف تتقلب القلوب؟ وهم قد نسوا لطول ما طغوا وبغوا ، ورأوا الأتباع ينقادون لإشارة منهم ، نسوا أن الله هو مقلب القلوب ؛ وأنها حين تتصل به وتستمد منه وتشرق بنوره لايكون لأحد عليها سلطان:

« قال : آمنتم له قبل أن آذن لكم ؟ إنه لكبيركم الذى علمكم السحر ، فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل ، ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى » .

« آمنتم له قبل أن آذن لكم » .. قولة الطاغية الذى لايدرك أنهم هم أنفسهم لا يملكون، وقد لمس الإيمان قلوبهم، أن يدفعوه عنها ، والقلب بين أصبعين من أصابع الرحمان يقلبه كيف يشاء.

« إنه لكبيركم الذى علمكم السحر ».. فذلك سر الاستسلام فى نظره ، لا أنه الإيمان الذى دب فى قلوبهم من حيث لايحتسبون . ولا أنها يد الرحمان تكشف عن بصائرهم غشاوة الضلال.

ثم التهديد الغليظ بالعذاب الغليظ الذى يعتمد عليه الطغاة ؛ ويسلطونه على الجسوم والأبدان حين يعجزون عن قهر القلوب والأرواح : « فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ، ولأصلبنكم فى جذوع النخل » ..

ثم الاستعلاء بالقوة الغاشمة . قوة الوحوش فى الغابة . القوة التى تمزق الأحشاء والأوصال، ولا تفرق بين إنسان يقرع بالحجة وحيوان يقرع بالناب : « ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى » !

ولكنه كان قد فات الأوان . كانت اللمسة الإيمانية قد وصلت الذرة الصغيرة بمصدرها الهائل ، فإذا هى قوية قويمة . وإذا القوى الأرضية كلها ضئيلة ضئيلة . واذا الحياة الأرضية كلها زهيدة زهيدة . وكانت قد تفتحت لهذه القلوب آفاق مشرقة وضيئة لاتبالى أن تنظر بعدها إلى الأرض ومابها من عرض زائل . ولا إلى حياة الأرض وما فيها من متاع تافه :

« قالوا : لن نؤثرك على ماجاءنا من البينات والذى فطرنا، فاقض ماأنت قاض . إنما تقضى هذه الحياة الدنيا . إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر ، والله خير وأبقى »

إنها لمسة الإيمان فى القلوب التى كانت منذ لحظة تعنو لفرعون وتعد القربى منه مغنما يتسابق اليه المتسابقون : فإذا هى بعد لحظة تواجهه فى قوة ، وترخص ملكه وزخرفه وجاهه وسلطانه :

«قالوا : لن نؤثرك على ماجاءنا من البينات والذى فطرنا.. » فهى علينا أعز وأغلى وهو جل شأنه

أكبر وأعلى . « فاقض ما أنت قاض » ودونك وما تملكه لنا فى الارض . « إنما تقضى هذه الحياة الدنيا » . فسلطانك مقيد بها ، ومالك من سلطان علينا فى غيرها . وما أقصر الحياة الدنيا ، وما أهون الحياة الدنيا . وما تملكه لنا من عذاب أيسر من أن يخشاه قلب يتصل بالله ، ويأمل فى الحياة الخالدة أبدا . « إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر » مما كنت تكلفنا به فلا نملك لك عصيانا ؛ فلعل بإيماننا بربنا يغفر لنا خطايانا . « والله خير وأبقى » خير قسمة وجوارا ، وأبقى مغنما وجزاء . إن كنت تهددنا بمن هو أشد وأبقى ...

وألهم السحرة الذى آمنوا بربهم أن يقفوا من الطاغية موقف المعلم المستعلى :

« إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا . ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى . جنات عدن تجرى من تحتها الانهار وذلك جزاء من تزكى »

فاذا كان يتهددهم بمن هو أشد وأبقى . فها هى ذى صورة لمن يأتى ربه مجرما هى أشد عذابا وأدوم « فان له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا » فلا هو ميت فيستريح ، ولا هو حى فيتمتع. إنما هو العذاب الذى لا ينتهى إلى موت ولا ينتهى إلى حياة .. وفى الجانب الآخر الدرجات العلى.. جنات للإقامة ندية بما يجرى تحت غرفاتها من أنهار « وذلك جزاء من تزكى » وتطهر من الآثام .

وهزأت القلوب المؤمنه بتهديد الطغيان الجائر ، وواجهته بكلمة الايمان القوية . وباستعلاء الايمان الواثق . وبتحذير الإيمان الناصح. وبرجاء الإيمان العميق .

ومضى هذا المشهد فى تاريخ البشرية إعلانا لحرية القلب البشرى باستعلائه على قيود الارض وسلطان الارض ، وعلى الطمع ، فى المثوبة والخوف من السلطان . وما يملك القلب البشرى أن يجهر بهذا الإعلان القوى إلا فى ظلال الإيمان.

وهنا يسدل الستار ليرفع على مشهد آخر وحلقة من القصة جديدة .

إنه مشهد انتصار الحق والإيمان فى واقع الحياة المشهود ، بعد انتصارهما فى عالم الفكرة والعقيدة . فلقد مضى السياق بانتصار آية العصا على السحر ؛ وانتصار العقيدة فى قلوب السحرة على الاحتراف ؛ وانتصار الإيمان فى قلوبهم على الرغب والرهب ، والتهديد والوعيد . فالآن ينتصر الحق على الباطل والهدى على الضلال ، والإيمان على الطغيان فى الواقع المشهود . والنصر الأخير

مرتبط بالنصر الأول . فما يتحقق النصر فى عالم الواقع إلا بعد تمامه فى عالم الضمير ؛ وما يستعلى أصحاب الحق فى الظاهر إلا بعد أن يستعلوا بالحق فى الباطن . . إن للحق والإيمان حقيقة متى تجسمت فى المشاعر أخذت طريقها فاستعلنت ليراها الناس فى صورتها الواقعية . فأما إذا ظل الإيمان مظهرا لم يتجسم فى القلب ، والحق شعارا لا ينبع من الضمير ، فإن الطغيان والباطل قد يغلبان ، لأنهما يملكان قوة مادية حقيقية لامقابل لها ولا كفاء فى مظهر الحق والإيمان . . يجب أن تتحقق حقيقة الإيمان فى النفس وحقيقة الحق فى القلب ؛ فتصبحان أقوى من حقيقة القوى المادية التى يستعلى بها الباطل ويصول بها الطغيان . . وهذا هو الذى كان فى موقف موسى — عليه السلام — من السحر والسحرة . وفى موقف السحرة من فرعون وملئه . ومن ثم انتصر الحق فى الأرض كما يعرضه هذا المشهد فى سياق السورة :

« ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى ، فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا ، لا تخاف دركا ولا تخش . فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم ، وأضل فرعون قومه وما هــدى » . .

ولا يذكر السياق هنا ما الذى كان بعد مواجهة الإيمان للطغيان فى موقف السحرة مع فرعون . ولا كيف تصرف معهم بعد ما اعتصموا بإيمانهم مستقبلين التهديد والوعيد بقلب المؤمن المتعلق بربه ، المستهين بحياة الأرض وما فيها ومن فيها . إنما يعقب بهذا المشهد . مشهد الانتصار الكامل ليتصل النصر القلبى بالنصر الواقعى . وتتجلى رعاية الله لعباده المؤمنين كاملة حاسمة . . ولنفس الغرض لا يطيل هنا فى مشهد الخروج والوقوف أمام البحر — كما يطيل فى سور أخرى — بل يبادر بعرض مشهد النصر بلا مقدمات كثيرة . لأن مقدماته كانت فى الضمائر والقلوب .

وإن هو إلا الإيحاء لموسى أن يخرج بعباد الله — بنى إسرائيل — ليلا . فيضرب لهم طريقا فى البحر يبسا بدون تفصيل ولا تطويل — فنعرضه نحن كذلك كما جاء — مطمئنا إلى أن عناية الله ترعاهم فلا يخاف أن يدركه فرعون وجنـوده ، ولا يخشى من البحر الذى اتخذ له طريقا يابسا فيه ! ويد القدرة التى أجرت المـاء وفق الناموس الذى أرادته قادرة على أن تكشفه بعض الوقت عن طريق يابس فيه !

« فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم . وأضل فرعون قومه وما هدى » . .

هكذا يجمل السياق كذلك ماغشى فرعون وقومه ، ولا يفصله ، ليبقى وقعه فى النفس شاملامهولا ؛ لا يحدده التفصيل . وقاد فرعون قومه إلى الضلال فى الحياة كما قادهم إلى الضلال والبحر . وكلاهما ضلال يؤدى إلى البوار ..

ولا نتعرض نحن لتفصيلات ماحدث فى هذا الموضع ، كى نتابع السياق فى حكمة الإجمال . إنما نقف أمام العبرة التى يتركها المشهد ونتسمع لإيقاعه فى القلوب ..

لقد تولت يد القدرة إدارة المعركة بين الإيمان والطغيان فلم يتكلف أصحاب الإيمان فيها شيئاً سوى اتباع الوحى والسرى ليلا . ذلك أن القوتين لم تكونا متكافئتين ولا متقاربتين فى عالم الواقع .. موسى وقومه ضعاف مجردون من القوة ، وفرعون وجنده يملكون القوة كلها . فلا سبيل إلى خوض معركة مادية أصلا. هنا تولت يد القدرة إدارة المعركة . ولكن بعد أن اكتملت حقيقة الإيمان فى نفوس الذين لا يملكون قوة سواها . بعد أن استعلن الإيمان فى وجه الطغيان لا يخشاه ولا يرجوه ؛ لا يرهب وعيده ولا يرغب فى شىء مما فى يده . . يقول الطغيان : « فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل » فيقول الإيمان : « فاقض ماأنت قاض. إنما تقضى هذه الحياة الدنيا » .. عندما بلغت المعركة بين الإيمان والطغيان فى عالم القلب إلى هـذا الحد تولت يد القدرة راية الحق لترفعها عالية ، وتنكس راية الباطل بلا جهد من أهل الإيمان .

وعبرة أخرى ..

إنه حين كان بنو اسرائيل يؤدون ضريبة الذل لفرعون وهو يقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم لم تتدخل يد القدرة لإدارة المعركة . فهم لم يكونوا يؤدون هـذه الضريبة إلا ذلا واستكانة وخوفا . فأما حين استعلن الإيمان ، فى قلوب الذين آمنوا بموسى واستعدوا لاحتمال التعذيب وهم مرفوعو الرؤوس يجهرون بكلمة الإيمان فى وجه فرعون دون تلجلج ودون تحرج ، ودون اتقاء للتعذيب . فأما عند ذلك فقد تدخلت يد القدرة لإدارة المعركة . وإعلان النصر الذى تم قبل ذلك فى الأرواح والقلوب . .

هـذه هى العبرة التى يبرزها السياق بذلك الإجمال ، وبتتابع المشهدين بلا عائق من

التفصيلات . ليستيقنها أصحاب الدعوات ، ويعرفوا متى يرتقبون النصر من عند الله وهم مجردون من عدة الأرض . والطغاة يملكون المال والجند والسلاح ..

* * *

وفى ظلال النصر والنجاة يتوجه الخطاب إلى الناجين بالتذكير والتحذير ، كى لا ينسوا ولا يبطروا ؛ ولا يتجردوا من السلاح الوحيد الذى كان لهم فى المعركة فضمنوا به النصر والنجاح :

« يابنى إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم ؛ وواعدناكم جانب الطور الأيمن ، ونزلنا عليكم المن والسلوى . كلوا من طيبات مارزقناكم ، ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبى ، ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى . وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى » ..

لقد جازوا منطقة الخطر ، وانطلقوا ناجين ناحية الطور . وتركوا وراءهم فرعون وجنده غرقى : وإنجاؤهم من عدوهم واقع قريب يذكرونه اللحظة فلم يمض عليه كثير . ولكنه إعلان التسجيل . والتذكير بالنعمة المشهودة ليعرفوها ويشكروها .

ومواعدتهم جانب الطور الأيمن يشار إليها هنا على أنها أمر وقع ؛ وكانت مواعدة لموسى — عليه السلام — بعد خروجهم من مصر ، أن يأتى إلى الطور بعد أربعين ليلة يتهيأ فيها للقاء ربه ، ليسمع مايوحى إليه فى الألواح من أمور العقيدة والشريعة ، المنظمة لهذا الشعب الذى كتب له دورا يؤديه فى الأرض المقدسة بعد الخروج من مصر .

وتنزيل المن . وهو مادة حلوة تتجمع على أوراق الشجر . والسلوى وهو طائر السمانى يساق إليهم فى الصحراء ، قريب المتناول سهل التناول ، كان نعمة من الله ومظهرا لعنايته بهم فى الصحراء الجرداء . وهو يتولاهم حتى فى طعامهم اليومى فييسره لهم من أقرب الموارد .

وهو يذكرهم بهذه النعم ليأ كلوا من الطيبات التى يسرها لهم ويحذرهم من الطغيان فيها . بالبطنة والانصراف إلى لذائذ البطون والغفلة عن الواجب الذى هم خارجون له ، والتكليف الذى يعدهم ربهم لتلقيه . ويسميه طغيانا وهم قريبو العهد بالطغيان ، ذاقوا منه ماذاقوا ، ورأوا من نهايته مارأوا . « ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبى . ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى » .. ولقد هوى فرعون منذ قليل . هوى عن عرشه وهوى فى الماء . . والهوىّ إلى أسفل

يقابل الطغيان والتعالى . والتعبير ينسق هـذه المقابلات فى اللفظ والظل على طريقة التناسق القرآنية الملحوظة .

هذا هو التحذير والإنذار للقوم المقدمين على المهمة التى من أجلها خرجوا ؛ كى لا تبطرهم النعمة ، ولا يترفوا فيهـا فيسترخوا . . وإلى جانب التحذير والإنذار يفتح باب التوبة لمن يخطىء ويرجع :

« وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى » . .

والتوبة ليست كلمة تقال ، إنمـا هى عزيمة فى القلب ، يتحقق مدلولها بالإيمان والعمل الصالح . ويتجلى أثرها فى السلوك العملى فى عالم الواقع . فإذا وقعت التوبة وصح الإيمان ، وصدقه العمل فهنا يأخذ الإنسان فى الطريق ، على هدى من الإيمان ، وعلى ضمانة من العمل الصالح . فالاهتداء هنا ثمرة ونتيجة للمحاولة والعمل ..

وإلى هنا ينتهى مشهد النصر والتعقيب عليه . فيسدل الستار حتى يرفع على مشهد المناجاة الثانية إلى جانب الطور الأيمن ...

* * *

لقد واعد الله موسى ــ عليه السلام ــ على الجبل ميعادا ضربه له ليلقاه بعد أربعين يوما ؛ لتلقى التكاليف : تكاليف النصر بعد الهزيمة . وللنصر تكاليفه ، وللعقيدة تـكاليفها . ولا بد من تهيؤ نفسى واستعداد للتلقى .

وصعد موسى إلى الجبل ، وترك قومه فى أسفله ، وترك عليهم هارون نائبا عنه..

لقد غلب الشوق على موسى إلى مناجاة ربه ، والوقوف بين يديه ، وقد ذاق حلاوتها من قبل ، فهو إليها مشتاق عجول. ووقف فى حضرة مولاه . وهو لا يعلم ماوراءه ، ولا ما أحدث القوم بعده ؛ حين تركهم فى أسفل الجبل .

وهنا ينبئه ربه بما كان خلفه .. فلنشهد المشهد ولنسمع الحوار :

« وما أعجلك عن قومك ياموسى ؟ قال : هم أولاء على أثرى ، وعجلت إليك رب لترضى . قال : فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامرى » .

وهكذا فوجىء موسى . . إنه عجلان إلى ربه ، بعد ما تهيأ واستعد أربعين يوما ، ليلقاه ويتلقى منه التوجيه الذى يقيم عليه حياة بنى إسرائيل الجديدة . وقد استخلصهم من الذل والاستعباد ، ليصوغ منهم أمة ذات رسالة ، وذات تكاليف .

ولكن الاستعباد الطويل والذل الطويل فى ظل الفرعونية الوثنية كان قد أفسد طبيعة القوم وأضعف استعدادهم لاحتمال التكاليف والصبر عليها ، والوفاء بالعهد والثبات عليه ؛ وترك فى كيانهم النفسى خلخلة واستعدادا للانقياد والتقليد المريح . فما يكاد موسى يتركهم فى رعاية هارون ويبعد عنهم قليلا حتى تتخلخل عقيدتهم كلها وتنهار أمام أول اختبار . ولم يكن بد من اختبارات متوالية وابتلاءات متكررة لإعادة بنائهم النفسى . وكان أول ابتلاء هو ابتلاؤهم بالعجل الذى صنعه لهم السامرى : « قال : فإنا قد فتنا قومك من بعدك ، وأضلهم السامرى » ولم يكن لدى موسى علم بهذا الابتلاء ، حتى لقى ربه ، وتلقى الألواح وفى نسختها هدى ، وبها الدستور التشريعى لبناء بنى إسرائيل بناء يصلح للمهمة التى هم منتدبون لها .

وينهى السياق موقف المناجاة هنا على عجل ويطويه ، ليصور انفعال موسى — عليه السلام — مما علم من أمر الفتنة ، ومسارعته بالعودة ، وفى نفسه حزن وغضب ، على القوم الذين أنقذهم الله على يديه من الاستعباد والذل فى ظل الوثنية ؛ ومن عليهم بالرزق الميسر والرعاية الرحيمة فى الصحراء ؛ وذكرهم منذ قليل بآلائه ، وحذرهم الضلال وعواقبه . ثم ها هم أولاء يتبعون أول ناعق إلى الوثنية ، وإلى عبادة العجل !

ولم يذكر هنا ما أخبر الله به موسى من تفصيلات الفتنة ، استعجالا فى عرض موقف العودة إلى قومه . ولكن السياق يشى بهذه التفصيلات . فلقد عاد موسى غضبان أسفا يوبخ قومه ويؤنب أخاه . فلا بد أنه كان يعلم شناعة الفعلة التى أقدموا عليها :

« فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا . قال : يا قوم : ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا ؟ أفطال عليكم العهد ؟ أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى ؟ قالوا : ما أخلفنا موعدك بملكنا ، ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها ، فكذلك ألقى السامرى ، فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار ، فقالوا : هذا إلهكم وإله موسى فنسى ، أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ، ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا ؟ ولقد قال لهم هارون من قبل : يا قوم إنما فتنتم به ،

وإن ربكم الرحمان فاتبعونى وأطيعوا أمرى . قالوا : لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى ! » .

هذه هى الفتنة يكشف السياق عنها فى مواجهة موسى بقومه ؛ وقد أخر كشفها عن موقف المناجاة ، واحتفظ بتفصيلاتها لتظهر فى مشهد التحقيق الذى يقوم به موسى ..

لقد رجع موسى ليجد قومه عاكفين على عجل من الذهب له خوار يقولون : هذا إلهكم وإله موسى . وقد نسى موسى فذهب يطلب ربه على الجبل وربه هنا حاضر !

فراح موسى يسألهم فى حزن وغضب : « يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا ؟ » وقد وعدهم الله بالنصر ودخول الأرض المقدسة فى ظل التوحيد ؛ ولم يمض على هذا الوعد وإنجاز مقدماته طويل وقت . ويؤنبهم فى استنكار : « أفطال عليكم العهد ؟ أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم ؟ » فعملكم هذا عمل من يريد أن يحل عليه غضب من الله كأنما يتعمد ذلك تعمدا ، ويقصد إليه قصدا !.. أفطال عليكم العهد ؟ أم تعمدتم حلول الغضب « فأخلفتم موعدى » وقد تواعدنا على أن تبقوا على عهدى حتى أعود إليكم ، لا تغيرون فى عقيدتكم ولا منهجكم بغير أمرى ؟

عندئذ يعتذرون بذلك العذر العجيب ، الذى يكشف عن أثر الاستعباد الطويل ، والتخلخل النفسى والسخف العقلى : « قالوا : ما أخلفنا موعدك بملكنا » فلقد كان الأمر أكبر من طاقتنا ! « ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها » . . وقد حملوا معهم أكداسا من حلى المصريات كانت عارية عند نسائهم فحملنها معهن . فهم يشيرون إلى هذه الأحمال . ويقولون : لقد قذفناها تخلصا منها لأنها حرام . فأخذها السامرى فصاغ منها عجلا . والسامرى رجل من « سامراء » كان يرافقهم أو أنه واحد منهم يحمل هذا اللقب . وجعل له منافذ إذا دارت فيها الريح أخرجت صوتا كصوت الخوار ، ولا حياة فيه ولا روح فهو جسد ــ ولفظ الجسد يطلق على الجسم الذى لا حياة فيه ــ فلما كادوا يرون عجلا من ذهب يخور حتى نسوا ربهم الذى أنقذهم من أرض الذل ، وعكفوا على عجل الذهب ؛ وفى بلاهة فكر وبلادة روح قالوا : « هذا إلهكم وإله موسى » راح يبحث عنه على الجبل ، وهو هنا معنا . وقد نسى موسى الطريق إلى ربه وضل عنه !

وهي قولة تضيف إلى معنى البلادة والتفاهة اتهامهم لنبيهم الذى أنقذهم تحت عين الله وسمعه، وبتوجيهه وإرشاده . اتهامهم له بأنه غير موصول بربه ، حتى ليضل الطريق إليه ، فلاهو يهتدى ولا ربه يهديه !

ذلك فضلا على وضوح الخدعة : « أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ، ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا ؟ » والمقصود أنه حتى لم يكن عجلا حيا يسمع قولهم ويستجيب له على عادة العجول البقرية ! فهو فى درجة أقل من درجة الحيوانية . وهو بطبيعة الحال لا يملك لهم ضرا ولا نفعا فى أبسط صورة . فهو لا ينطح ولا يرفس ولا يدير طاحونة ولا ساقية !

وغير ذلك كله لقد نصح لهم هارون ، وهو نبيهم كذلك ، والنائب عن نبيهم المنقذ . ونبههم إلى أن هذا ابتلاء : « قال : يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمان » ونصحهم باتباعه وطاعته كما تواعدوا مع موسى ، وهو عائد إليهم بعد ميعاده مع ربه على الجبل . . ولكنهم بدلا من الاستجابة له التووا وتملصوا من نصحه ، ومن عهدهم لنبيهم بطاعته ، وقالوا : « لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى » . .

رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا ؛ فسمع منهم حجتهم التى تكشف عن مدى ما أصاب نفوسهم من تخلخل ، وأصاب تفكيرهم من فساد . فالتفت إلى أخيه وهو فى فورة الغضب ، يأخذ بشعر رأسه وبلحيته فى انفعال وثورة :

« قال : يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن ؟ أفعصيت أمرى ؟ »

يؤنبه على تركهم يعبدون العجل ، دون أن يبطل عبادته ، اتباعا لأمر موسى -عليه السلام- بألا يحدث أمرا بعده ، ولا يسمح بإحداث أمر . ويستنكر عليه عدم تنفيذه ، فهل كان ذلك عصيانا لأمره ؟

وقد قرر السياق ما كان من موقف هارون . فهو يطلع أخاه عليه ؛ محاولا أن يهدىء من غضبه ، باستجاشة عاطفة الرحم فى نفسه :

« قال : يا ابن أم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى . إنى خشيت أن تقول : فرقت بين بنى إسرائيل ولم ترقب قولى » .

وهكذا نجد هارون أهدأ أعصابا وأملك لانفعاله من موسى ، فهو يلمس فى مشاعره نقطة حساسة . ويجىء له من ناحية الرحم وهى أشد حساسية ، ويعرض له وجهة نظره

فى صورة الطاعة لأمره حسب تقديره ؛ وأنه خشى إن هو عالج الأمر بالعنف أن يتفرق بنو إسرائيل شيعا ، بعضها مع العجل ، وبعضها مع نصيحة هارون . وقد أمره بأن يحافظ على بنى إسرائيل ولا يحدث فيهم أمرا . فهى كذلك طاعة الأمر من ناحية أخرى ...

عندئذ يتجه موسى بغضبه وانفعاله إلى السامرى صاحب الفتنة من أساسها . إنما لم يتوجه إليه منذ البدء ، لأن القوم هم المسؤولون ألا يتبعوا كل ناعق ، وهارون هو المسؤول أن يحول بينهم وبين اتباعه إذا هموا بذلك وهو قائدهم المؤتمن عليهم . فأما السامرى فذنبه يجىء متأخرا لأنه لم يفتنهم بالقوة ، ولم يضرب على عقولهم ، إنما أغواهم فغووا ، وكانوا يملكون أن يثبتوا على هدى نبيهم الأول ونصح نبيهم الثانى . فالتبعة عليهم أولا وعلى راعيهم بعد ذلك . ثم على صاحب الفتنة والغواية أخيرا .

اتجه موسى إلى السامرى !

« قال : فما خطبك ياسامرى ؟ » . . أى ماشأنك وما قصتك . وهذه الصيغة تشير إلى جسامة الأمر ، وعظم الفعلة .

« قال : بصرت بما لم يبصروا به ، فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها . وكذلك سولت لى نفسى » ..

وتتكاثر الروايات حول قول السامرىّ هذا . فما هو الذى بصر به ؟ ومن هو الرسول الذى قبض قبضة من أثره فنبذها ؟ وما علاقة هذا بعجل الذهب الذى صنعه ؟ وما أثر هذه القبضة فيه ؟

والذى يتردد كثيرا فى هذه الروايات أنه رأى جبريل — عليه السلام — وهو فى صورته التى ينزل بها إلى الأرض ؛ فقبض قبضة من تحت قدمه ، أو من تحت حافر فرسه ، فألقاها على عجل الذهب ، فكان له هذا الخوار . أو إنها هى التى أحالت كوم الذهب عجلا له خوار ..

والقرآن لا يقرر هنا حقيقة ماحدث ، إنما هو يحكى قول السامرى مجرد حكاية . . ونحن نميل إلى اعتبار هذا عذرا من السامرى وتملصا من تبعة ما حدث . وأنه هو صنع العجل من الذهب الذى قذفه بنو إسرائيل من زينة المصريين التى أخذوها معهم ، وأنه صنعه بطريقة تجعل الريح تصوت فى فراغه فتحدث صوتا كالخوار . ثم قال حكاية أثر الرسول يبرر بها موقفه ، ويرجع الأمر إلى فطنته إلى أثر الرسول !

وعلى أية حال فقد أعلنه موسى ـ عليه السلام ـ بالطرد من جماعة بنى اسرائيل . مدة حياته . ووكل أمره بعد ذلك إلى الله . وواجهه بعنف فى أمر إلهه الذى صنعه بيده . ليرى قومه بالدليل المادى أنه ليس إلها ، فهو لا يحمى صانعه ، ولا يدفع عن نفسه :

« قال : فاذهب فإن لك فى الحياة أن تقول : لامساس . وإن لك موعـدا لن تخلفه . وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفا ، لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفا » ..

اذهب مطرودا لا يمسك أحـد لا بسوء ولا بخير ولا تمس أحدا ـ وكانت هـذه إحدى العقوبات فى ديانة موسى . عقوبة العزل، وإعلان دنس المدنس فلا يقربه أحد ولا يقرب أحدا ـ أما الوعد الآخر فهو موعد العقوبة والجزاء عند الله . . وفى حنق وعنف أمر أن يهوى على عجل الذهب ، فيحرق وينسف ويلقى فى الماء . والعنف إحدى سمات موسى ـ عليه السلام ـ وهو هنا غضبة لله ولدين الله ، حيث يستحب العنف وتحسن الشدة .

وعلى مشهد الإله المزيف يحرق وينسف ، يعلن موسى ـ عليه السلام ـ حقيقة العقيدة .

« إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو . وسع كل شىء علما . » .

وينتهى بهـذا الإعلان هذا القدر من قصة موسى فى هذه السورة . تتجلى فيه رحمة الله ورعايته بحملة دعوته وعباده . حتى عندما يبتلون فيخطئون . ولا يزيد السياق شيئا من مراحل القصة بعد هـذا ، لأنه بعد ذلك يقع العذاب على بنى إسرائيل بما يرتكبون من آثام وفسـاد وطغيان . وجو السورة هو جو الرحمة والرعاية بالمختارين . فلا حاجة إلى عرض مشاهد أخرى من القصة فى هذا الجو الظليل .

. . . .

« كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ ، وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا * مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا * خَالِدِينَ فِيهِ ، وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا * يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ ، وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا * يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا * نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً : إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا .

« وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ: يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا * يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ ، وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَانِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا * يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَانُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا * وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ، وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا * وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا .

« وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ، وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ، وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ ، وَقُلْ : رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا .

« وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا * وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى * فَقُلْنَا : يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى * إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى * فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ : يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى ؟ * فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا ، وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ، وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى * قَالَ: اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ، فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى ، فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا ، وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ : رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ : كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ، وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى * وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ ، وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى .

«أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ؟ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَىٰ * وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى.

فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ * وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ، وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ * وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ، لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ .

« وَقَالُوا : لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ . أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ * وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا : رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَىٰ * قُلْ : كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا ، فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ » .

بدأت السورة بالحديث عن القرآن ، وأنه لم ينزل على الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ ليشقى به أو بسببه . ومن القرآن قصة موسى ــ عليه السلام ــ وما يبدو فيها من رعاية الله وعنايته بموسى وأخيه وقومه .

فالآن يعقب السياق على القصة بالعودة إلى القرآن ووظيفته ، وعاقبة من يعرض عنه . ويرسم هذه العاقبة فى مشهد من مشاهد القيامة ، تتضاءل فيه أيام الحياة الدنيا ؛ وتتكشف الأرض من جبالها وتعرى ، وتخشع الأصوات للرحمان، وتعنو الوجوه للحى القيوم . لعل هذا المشهد وما فى القرآن من وعيد يثير مشاعر التقوى فى النفوس ، ويذكرها بالله ويصلها به . ويتنهى هذا المقطع بإراحة بال الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ من القلق من ناحية القرآن الذى ينزل عليه ، فلايعجل فى ترديده خوف أن ينساه ، ولايشقى بذلك فالله ميسره وحافظه . إنما يطلب من ربه أن يزيده علما .

وبمناسبة حرص الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أن يردد ما يوحى إليه قبل انتهاء الوحى خشية النسيان ، يعرض السياق نسيان آدم لعهد الله . وينتهى بإعلان العداوة بينه وبين إبليس ، وعاقبة من يتذكرون عهد الله ومن يعرضون عنه من ولد آدم . ويرسم هذه العاقبة فى مشهد من مشاهد القيامة كأنما هو نهاية الرحلة التى بدأت فى الملأ الأعلى ، ثم تنتهى إلى هناك مرة أخرى .

وتختم السورة بتسلية الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن إعراض المعرضين وتكذيب المكذبين فلا يشقى بهم ، فلهم أجل معلوم . ولا يحفل بما أوتوه من متاع فى الحياة الدنيا فهو فتنة لهم . وينصرف إلى عبادة الله وذكره فترضى نفسه وتطمئن . ولقد هلكت القرون من قبلهم ، وشاء الله أن يعذر إليهم بالرسول الأخير ، فلينفض يده من أمرهم ويكلهم إلى مصيرهم .

« قل : كل متربص فتربصوا ، فستعلمون من أصحاب الصراط السوى ومن اهتدى » ..

* * *

« كذلك نقص عليك من أنباء ماقد سبق ، وقد آتيناك من لدنا ذكرا . من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزرا . خالدين فيه ، وساء لهم يوم القيامة حملا يوم ينفخ فى الصور. ونحشر المجرمين يومئذ زرقا . يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشرا . نحن أعلم بما يقولون : إذ يقول أمثلهم طريقة : إن لبثتم إلا يوما » . .

كذلك القصص الذى أوحينا إليك بشأن موسى نقص عليك من أنباء ماقد سبق . نقصه عليك فى القرآن ـ ويسمى القرآن ذكرا ، فهو ذكر لله ولآياته ، وتذكير بما كان من هذه الآيات فى القرون الأولى .

ويرسم للمعرضين عن هذا الذكر ـ ويسميهم المجرمين ـ مشهداً فى يوم القيامة . فهؤلاء المجرمون يحملون أثقالهم كما يحمل المسافر أحماله . ويالسوئها من أحمال ! فإذا نفخ فى البوق للتجمع فالمجرمون يحشرون زرق الوجوه من الكدر والغم . يتخافتون بينهم بالحديث ، لا يرفعون به صوتا من الرعب والهول ، ومن الرهبة المخيمة على ساحة الحشر . وفيم يتخافتون ؟ إنهم يحدسون عما قضوا على الأرض من أيام . وقد تضاءلت الحياة الدنيا فى

حسهم ، وقصرت أيامها فى مشاعرهم ، فليست فى حسهم سوى أيام قلائل : « إن لبثتم إلا عشرا » فأما أرشدهم وأصوبهم رأيا فيحسونها أقصر وأقصر : « إن لبثتم إلا يوما » . وهكذا تنزوى تلك الأعمار التى عاشوها على الأرض وتنطوى ؛ ويتضاءل متاع الحياة وهموم الحياة ؛ ويبدو ذلك كله فترة وجيزة فى الزمان ، وشيئا ضئيلا فى القيمة . فما قيمة عشر ليال ولو حفلت باللذائذ كلها وبالمتاع ؟ وما قيمة ليلة ولو كانت دقائقها ولحظاتها مليئة بالسعادة والمسرة . ماقيمة هـذه أو تلك إلى جانب الآماد التى لا نهاية لها ، والتى تنتظرهم بعد الحشر وتمتد بهم بلا انقطاع ؟ !

ويزيد مشهد الهول بروزا ، بالعودة إلى سؤال لهم يسألونه فى الدنيا عن الجبـال مايكون من شأنها يومذاك . فإذا الجواب يصور درجة الهول الذى يواجهونه !

« ويسألونك عن الجبال فقل : ينسفها ربى نسفا ، فيذرها قاعا صفصفاً لا ترى فيها عوجا ولا أمتا . يومئـذ يتبعون الداعى لا عوج له ، وخشعت الأصوات للرحمـان ، فلا تسمع إلا همسا . يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمان ورضى له قولا . يعلم مابين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما . وعنت الوجوه للحى القيوم ، وقد خاب من حمل ظلما . ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما » . .

ويتجلى المشهد الرهيب فإذا الجبال الراسية الراسخة قد نسفت نسفا ؛ وإذا هى قاع بعد ارتفاع . قاع صفصف خال من كل نتوء ومن كل اعوجاج ، فلقد سويت الأرض فلا علو فيها ولا انخفاض . .

وكأنمـا تسكن العاصفة بعد ذلك النسف والتسوية ؛ وتنصت الجموع المحشودة المحشورة ، وتخفت كل حركة وكل نأمة ، ويستمعون الداعى إلى الموقف فيتبعون توجيهه كالقطيع صامتين مستسلمين ، لا يتلفتون ولا يتخلفون ــ وقد كانوا يدعون إلى الهدى فيتخلفون ويعرضون ــ ويعبر عن استسلامهم بأنهم « يتبعون الداعى لا عوج له » تنسيقا لمشهد القلوب والأجسام مع مشهد الجبال التى لا عوج فيها ولا نتوء !

ثم يخيم الصمت الرهيب والسكون الغامر : « وخشعت الأصوات للرحمان فلا تسمع إلا همسا » .. « وعنت الوجوه للحى القيوم » . .

وهكذا يخيم الجلال على الموقف كله ، وتغمر الساحة التى لا يحدها البصر رهبة وصمت

وخشوع . فالـكلام همس . والسؤال تخافت . والخشوع ضاف . والوجوه عانية . وجلال الحى القيوم يغمر النفوس بالجلال الرزين . ولا شفاعة إلا لمن ارتضى الله قوله . والعلم كله لله . وهم لا يحيطون به علما . والظالمون يحملون ظلمهم فيلقون الخيبة . والذين آمنوا مطمئنون لا يخشون ظلما فى الحساب ولا هضما لما عملوا من صالحات .

إنه الجلال ، يغمر الجو كله ويغشاه ، فى حضرة الرحمان .

« وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا ». كذلك على هذا النسق نوعنا فى القرآن من صور الوعيد ومواقفه ومشاهده لعله يستجيش فى نفوس المكذبين شعور التقوى ، أو يذكرهم بما سيلقون فى الآخرة فينزجروا . . فذلك إذ يقول الله فى أول السورة . « ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى . إلا تذكرة لمن يخشى » . .

ولقد كان الرسول — صلى الله عليه وسلم — يلاحق الوحى فيردد ألفاظ القرآن وآياته قبل أن ينتهى الوحى مخافة أن ينسى . وكان ذلك يشق عليه . فأراد ربه أن يطمئن قلبه على الأمانة التى يحملها .

« فتعالى الله الملك الحق . ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه . وقل : رب زدنى علما » . .

فتعالى الله الملك الحق الذى تعنو له الوجوه ؛ ويخيب فى حضرته الظالمون ويأمن فى ظله المؤمنون الصالحون . . هو منزل هـذا القرآن من عليائه ، فلا يعجل به لسانك ، فقد نزل القرآن لحـكمة ، ولن يضيعه . إنما عليك أن تدعو ربك ليزيدك من العلم ، وأنت مطمئن إلى مايعطيك ، لا تخشى عليه الذهاب . وما العلم إلا مايعلمه الله فهو الباقى الذى ينفع ولا يضيع . ويثمر ولا يخيب . .

* * *

ثم تجىء قصة آدم ، وقد نسى ماعهد الله به إليه ؛ وضعف أمام الإغراء بالخلود ، فاستمع لوسوسة الشيطان : وكان هذا ابتلاء من ربه له قبل أن يعهد إليه بخلافة الأرض ؛ ونموذجا من فعل إبليس يتخذ أبناء آدم منه عبرة . فلما تم الابتلاء تداركت آدم رحمة الله فاجتباه وهداه . .

والقصص القرآنى يجىء فى السياق متناسقاً معه . وقصة آدم هنا تجىء بعد عجلة الرسول بالقرآن خوف النسيان ، فيذكر فى قصة آدم نقطة النسيان . وتجىء فى السورة التى تكشف عن رحمة الله ورعايته لمن يجتبيهم من عباده ، فيذكر فى قصة آدم أن ربه اجتباه فتاب عليه وهداه . ثم يعقبها مشهد من مشاهد القيامة يصور عاقبة الطائعين من أبنائه وعاقبة العصاة . وكأنما هى العودة من رحلة الأرض إلى المقر الأول ليجزى كل بما قدمت يداه .

فلنتبع القصة كما جاءت فى السياق :

« ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما » ..

وعهد الله إلى آدم كان هو الأكل من كل الثمار سوى شجرة واحدة ، تمثل المحظور الذى لا بد منه لتربية الإرادة ، وتأكيد الشخصية ، والتحرر من رغائب النفس وشهواتها بالقدر الذى يحفظ للروح الإنسانية حرية الانطلاق من الضرورات عند ما تريد ؛ فلا تستعبدها الرغائب وتقهرها . وهذا هو القياس الذى لا يخطىء فى قياس الرقى البشرى . فكلما كانت النفس أقدر على ضبط رغائبها والتحكم فيها والاستعلاء عليها كانت أعلى فى سلم الرقى البشرى . وكلما ضعفت أمام الرغبة وتهاوت كانت أقرب إلى البهيمية وإلى المدارج الأولى .

من أجل ذلك شاءت العناية الإلهية التى ترعى هذا الكائن الإنسانى أن تعده لخلافة الأرض باختبار إرادته ، وتنبيه قوة المقاومة فيه ، وفتح عينيه على ما ينتظره من صراع بين الرغائب التى يزينها الشيطان ، وإرادته وعهده للرحمان . وها هى ذى التجربة الأولى تعلن نتيجتها الأولى : « فنسى ولم نجد له عزما » ثم تعرض تفصيلاتها :

« وإذ قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى » .

هكذا فى إجمال ، يجىء هذا المشهد الذى يفصل فى سور أخرى ، لأن السياق هنا سياق النعمة والرعاية . . فيعجل بمظاهر النعمة فى الرعاية :

« فقلنا : يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك ، فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ، إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى ، وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى » . .

وكانت هذه رعاية من الله وعنايته أن ينبه آدم إلى عدوه ويحذره عذره ، عقب نشوزه

وعصيانه ، والامتناع عن السجود لآدم كما أمره ربه . « فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى » فالشقاء بالكد والعمل والشرود والضلال والقلق والحيرة واللهفة والانتظار والألم والفقدان.. كلها تنتظر هناك خارج الجنة ؛ وأنت فى حمى منها كلها ما دمت فى رحاب الفردوس . . « إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى . وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى » . . فهذا كله مضمون لك ما دمت فى رحابها ، والجوع والعرى ، يتقابلان مع الظمأ والضحوة . وهى فى مجموعها تمثل متاعب الإنسان الأولى فى الحصول على الطعام والكساء ، والشراب والظلال .

ولكن آدم كان غفلا من التجارب . وهو يحمل الضعف البشرى تجاه الرغبة فى البقاء والرغبة فى السلطان . ومن هذه الثغرة نفذ إليه الشيطان :

« فوسوس إليه الشيطان قال : يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ؟ »

لقد لمس فى نفسه الموضع الحساس ، فالعمر البشرى محدود ، والقوة البشرية محدودة . من هنا يتطلع إلى الحياة الطويلة وإلى الملك الطويل ، ومن هاتين النافذتين يدخل عليه الشيطان ، وآدم مخلوق بفطرة البشر وضعف البشر ، لأمر مقدور وحكمة مخبوءة . . ومن ثم نسى العهد ، وأقدم على المحظور :

« فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما ، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة . . وعصى آدم ربه فغوى » . .

والظاهر أنها السوءات الحسية تبدت لهما وكانت عنهما مستورة ، وأنها مواضع العفة فى جسديهما . يرجح ذلك أنهما أخذا يستر انها بورق الجنة يشبكانه ليستر هذه المواضع . وقد يكون ذلك إيذانا باستيقاظ الدوافع الجنسية فى كيانهما . فقبل يقظة هذه الدوافع لا يحس الإنسان بالخجل من كشف مواضع العفة ولا ينتبه إليها ولكنه ينتبه إلى العورات عند استيقاظ دوافع الجنس ويخجل من كشفها .

وربما كان حظر هذه الشجرة عليهما ، لأن ثمارها مما يوقظ هذه الدوافع فى الجسم تأجيلا لها فترة من الزمان كما يشاء الله . وربما كان نسيانهما عهد الله وعصيانهما له تبعه هبوط فى عزيمتهما وانقطاع عن الصلة بخالقهما فسيطرت عليهما دوافع الجسد وتنبهت فيهما دوافع الجنس. وربما كانت الرغبة فى الخلود تجسمت فى استيقاظ الدوافع الجنسية للتناسل ؛ فهذه هى الوسيلة الميسرة للإنسان للامتداد وراء العمر الفردى المحدود . . كل هذه فروض لتفسير مصاحبة

ظهور سوآتهما لهما للأكل من الشجرة . فهو لم يقل : فبدت سوآتهما . إنما قال : فبدت لهما سوآتهما . مما يؤذن أنها كانت محجوبة عنهما فظهرت لهما بدافع داخلى من إحساسهما . . وقد جاء فى موضع آخر عن إبليس : « ليبدى لهما ما وورى عنهما من سوآتهما » ، وجاء : « ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما » وقد يكون اللباس الذى نزعه الشيطان ليس لباساً ماديا إنما هو شعور ساتر ، قد يكون هو شعور البراءة والطهارة والصلة بالله . وعلى أية حال فهى مجرد فروض كما أسلفنا لا نؤكدها ولا نرجح واحدا منها . إنما هى لتقرب صورة التجربة الأولى فى حياة البشرية .

ثم أدركت آدم وزوجه رحمة الله ، بعد ما عصاه ، فقد كانت هذه هى التجربة الأولى :

« ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى » . .

بعد ما استغفر آدم وندم واعتذر . ولا يذكر هذا هنا لتبدو رحمة الله فى الجو وحدها . .

ثم صدر الأمر إلى الخصمين اللدودين أن يهبطا إلى أرض المعركة الطويلة بعد الجولة الأولى :

« قال : اهبطا منها جميعا ، بعضكم لبعض عدو » . .

وبذلك أعلنت الخصومة فى الثقلين . فلم يعد هناك عذر لآدم وبنيه من بعده أن يقول أحد منهم إنما أخذت على غرة ومن حيث لا أدرى . فقد درى وعلم ؛ وأعلن هذا الأمر العلوى فى الوجود كله : « بعضكم لبعض عدو » !

ومع هذا الإعلان الذى دوت به السماوات والأرضون ، وشهده الملائكة أجمعون . شاءت رحمة الله بعباده أن يرسل إليهم رسله بالهدى . قبل أن يأخذهم بما كسبت أيديهم . فأعلن لهم يوم أعلن الخصومة الكبرى بين آدم وإبليس ، أنه آتيهم بهدى منه ، فمجاز كلا منهم بعد ذلك حسبما ضل أو اهتدى :

« فإما يأتينكم منى هدى ، فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيامة أعمى . قال : رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا ؟ قال : كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى . وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى » . .

يجىء هذا المشهد بعد القصة كأنه جزء منها ، فقد أعلن عنه فى ختامها فى الملأ الأعلى . فذلك أمر إذن قضى فيه منذ بعيد ولا رجعة فيه ولا تعديل .

« فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى » . . فهو فى أمان من الضلال والشقاء باتباع هدى الله . وهما ينتظران خارج عتبات الجنة . ولـكن الله يقى منهما من اتبع هداه . والشقاء ثمرة الضلال ولو كان صاحبه غارقا فى المتاع. فهذا المتاع ذاته شقوة .شقوة فى الدنيا وشقوة فى الآخرة . وما من متاع حرام ، إلا وله غصة تعقبه وعقابيل تتبعه . وما يضل الإنسان عن هدى الله إلا ويتخبط فى القلق والحيرة والتكفؤ والاندفاع من طرف إلى طرف لا يستقر ولا يتوازن فى خطاه . والشقاء قرين التخبط ولو كان فى المرتع المرع ! ثم الشقوة الـكبرى فى دار البقاء . ومن اتبع هدى الله فهو فى نجوة من الضلال والشقاء فى الأرض ، وفى ذلك عوض عن الفردوس المفقود ، حتى يؤوب إليه فى اليوم الموعود .

« ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا » والحياة المقطوعة الصلة بالله ورحمته الواسعة، ضنك مهما يكن فيها من سعة ومتاع . إنه ضنك الانقاع عن الاتصال بالله والاطمئنان إلى حماه . ضنك الحيرة والقلق والشك . ضنك الحرص والحذر : الحرص على ما فى اليد والحذر من الفوت . ضنك الجرى وراء بارق المطامع والحسرة على كل مايفوت . وما يشعر القلب بطمأنينة الاستقرار إلا فى رحاب الله . وما يحس راحة الثقة إلا وهو مستمسك بالعروة الوثقى التى لا انفصام لها . . إن طمأنينة الإيمان تضاعف الحياة طولا وعرضا وعمقا وسعة ، والحرمان منه شقوة لا تعدلها شقوة الفقر والحرمان .

« ومن أعرض عن ذكرى» وانقطع عن الاتصال بى « فإن له معيشة ضنكا » .. « ونحشره يوم القيامة أعمى » .. وذلك ضلال من نوع ضلاله فى الدنيا . وذلك جزاء على إعراضه عن الذكر فى الأولى . حتى إذا سأل : « رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا ؟ » كان الجواب : « كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى . وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه . ولعذاب الآخرة أشد وأبقى » !

ولقد أسرف من أعرض عن ذكر ربه . أسرف فألقى بالهدى من بين يديه وهو أنفس ثراء وذخر، وأسرف فى انفاق بصره فى غير ما خلق له فلم يبصر من آيات الله شيئاً . فلا جرم يعيش معيشة ضنكا ! ويحشر فى يوم القيامة أعمى !

اتساق فى التعبير . واتساق فى التصوير .. هبوط من الجنة وشقاء وضلال ، يقابله عوده إلى

الجنة ونجوة من الشقاء والضلال . وفسحة فى الحياة يقابلها الضنك ، وهداية يقابلها العمى .. ويجىء هــذا تعقيبا على قصة آدم ـ وهى قصة البشرية جميعا ـ فيبدأ الاستعراض فى الجنة ، وينتهى فى الجنة ، كما مر فى سورة الأعراف ، مع الاختلاف فى الصور الداخلة فى الاستعراض هنا وهناك حسب اختلاف السياق . .

* * *

فإذا انتهت هذه الجولة بطرفيها أخذ السياق فى جولة حول مصارع الغابرين ؛ وهى أقرب فى الزمان من القيامة ، وهى واقع تشهده العيون إن كانت القيامة غيبا لا تراه الأبصار :

« أفلم يهد لهم كم أهلـكنا قبلهم من القرون يمشون فى مسا كنهم ؟ إن فى ذلك لآيات لأولى النهى . ولولا كلمة سبقت من ربك لـكان لزاما وأجل مسمى » .

وحين تجول العين والقلب فى مصارع القرون . وحين تطالع العين آثارهم ومسا كنهم عن كثب ، وحين يتملى الخيال الدور وقد خلت من أهلها الأول ؛ ويتصور شخوصهم الذاهبة ، وأشباحهم الهاربة ، وحركاتهم وسكناتهم ، وخواطرهم وأحلامهم ، وهمومهم وآمالهم . . حين يتأمل هذا الحشد من الأشباح والصور والانفعالات والمشاعر .. ثم يفتح عينه فلا يرى من ذلك كله شيئا إلا الفراغ والخواء . . عندئذ يستيقظ للهوة التى تفغر فاها لتبتلع الحاضر كما ابتلعت الغابر . وعندئذ يدرك يد القدرة التى أخذت القرون الأولى وهى قادرة على أن تأخذ مايليها . وعندئذ يعى معنى الإنذار ، والعبرة أمامه معروضة للأنظار . فما لهؤلاء القوم لا يهتدون وفى مصارع القرون ما يهدى أولى الألباب ؟ : « إن فى ذلك لآيات لأولى النهى » !

ولولا أن الله وعدهم ألا يستأصلهم بعذاب الدنيا ، لحـكمة عليا . لحل بهم ما حل بالقرون الأولى . ولـكنها كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى أمهلهم إليه : « ولولا كلمة سبقت من ربك لـكان لزاما ، وأجل مسمى » .

* * *

وإذا كانوا مؤخرين إلى أجل ، ممهلين لا مهملين ، فلا عليك ـ يا محمد ـ منهم ولا مما

أوتوه من زينة الحياة الدنيا ليكون ابتلاء لهم ، فإنما هى الفتنة ، وما أعطاكم الله إنعاما فهو خير مما أعطاهم ابتلاء :

« فاصبر على مايقولون ، وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ، ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى . ولا تمدن عينيك إلى مامتعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ، ورزق ربك خير وأبقى . وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى » ..

فاصبر على مايقولون من كفر واستهزاء وجحود وإعراض ، ولا يضق صدرك بهم ، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات . واتجه إلى ربك . سبح بحمده قبل طلوع الشمس وقبل غروبها . فى هدأة الصبح وهو يتنفس ويتفتح بالحياة ؛ وفى هدأة الغروب والشمس تودع ، والكون يغمض أجفانه ، وسبح بحمده فترات من الليل والنهار . . كن موصولا بالله على مدار اليوم .. « لعلك ترضى » . .

إن التسبيح بالله اتصال . والنفس التى تتصل تطمئن وترضى . ترضى وهى فى ذلك الجوار الرضى ؛ وتطمئن وهى فى ذلك الحمى الآمن .

فالرضى ثمرة التسبيح والعبادة ، وهو وحده جزاء حاضر ينبت من داخل النفس ويترعرع فى حنايا القلب .

اتجه إلى ربك بالعبادة « ولا تمدن عينيك إلى مامتعنا به أزواجا منهم » من عرض الحياة الدنيا ، من زينة ومتاع ومال وأولاد وجاه وسلطان . « زهرة الحياة الدنيا » التى تطلعها كما يطلع النبات زهرته لامعة جذابة . والزهرة سريعة الذبول على مابهـا من رواء وزواق . فإنما نمتعهم بها ابتلاء « لنفتنهم فيه » فنكشف عن معادنهم ، بسلوكهم مع هذه النعمة وذلك المتاع . وهو متاع زائل كالزهرة سرعان ماتذبل « ورزق ربك خير وأبقى » وهو رزق للنعمة لا للفتنه . رزق طيب خير باق لا يذبل ولا يخدع ولا يفتن .

وما هى دعوة للزهد فى طيبات الحياة ، ولكنها دعوة إلى الاعتزاز بالقيم الأصيلة الباقية وبالصلة بالله والرضى به . فلا تتهاوى النفوس أمام زينة الثراء ، ولا تفقد اعتزازها بالقيم العليا ، وتبقى دائما تحس حرية الاستعلاء على الزخارف الباطلة التى تبهر الأنظار . .

« وأمر أهلك بالصلاة » . . فأول واجبات الرجل المسلم أن يحول بيته إلى بيت مسلم ؟ وأن يوجه أهله إلى أداء الفريضة التى تصلهم معه بالله ، فتوحد اتجاههم العلوى فى الحياة . وما أروح الحياة فى ظلال بيت أهله كلهم يتجهون إلى الله .

« واصطبر عليها » . . على إقامتها كاملة ؟ وعلى تحقيق آثارها . إن الصلاة تنهى عن عن الفحشاء والمنكر . وهذه هى آثارها الصحيحة . وهى فى حاجة إلى اصطبار على البلوغ بالصلاة إلى الحد الذى تثمر فيه ثمارها هذه فى المشاعر والسلوك . وإلا فما هى صلاة مقامة . إنما هى حركات وكلمات.

هذه الصلاة والعبادة والاتجاه إلى الله هى تكاليفك والله لا ينال منها شيئا . فالله غنى عنك وعن عبادة العباد : « لا نسألك رزقا نحن نرزقك » إنما هى العبادة تستجيش وجدان التقوى « والعاقبة للتقوى » . فالإنسان هو الرابح بالعبادة فى دنياه وأخراه . يعبد فيرضى ويطمئن ويستريح . ويعبد فيجزى بعد ذلك الجزاء الأوفى . والله غنى عن العالمين .

* * *

وقرب ختام السورة يعود بالحديث إلى أولئك الكبراء المتعين المكذبين ، الذين يطلبون إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد ما جاءهم بهذا القرآن أن يأتيهم بآية من ربه : هذا القرآن الذى يبين ويوضح ما جاءت به الرسالات قبله :

« وقالوا : لولا يأتينا بآية من ربه . أو لم تأتهم بينة ما فى الصحف الأولى ؟ »

فليس إلا التعنت وإلا المكابرة والرغبة فى الاقتراح هى التى تملى مثل هذا الاقتراح . وإلا فآية القرآن كافية . وهو يصل حاضر الرسالة بماضيها ، ويوحد طبيعتها واتجاهها ، ويبين ويفصل ما أجمل فى الصحف الأولى .

ولقد أعذر الله للمكذبين فأرسل إليهم خاتم الرسلين ـ صلى الله عليه وسلم ـ

« ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا : لولا أرسلت إلينا رسولا ، فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى » . .

وهم لم يذلوا ولم يخزوا لحظة أن كان هذا النص يتلى عليهم . إنما هو تصوير لمصيرهم المحتوم . الذى يذلون فيه ويخزون : فلعلهم حينذاك قائلون : « ربنا لولا أرسلت إلينا

رسولا . . . » فها هى ذى الحجة قد قطعت عليهم ، فلم يعد لهم من عذر ولا عذير !

وعند ما يصل السياق إلى تصوير المصير المحتوم الذى ينتظرهم يؤمر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن ينفض يده منهم ، فلا يشقى بهم ، ولا يكربه عدم إيمانهم ، وأن يعلن إليهم أنه متربص بهم ذلك المصير ، فليتربصوا هم كيف يشاءون :

« قل : كل متربص فتربصوا . فستعلمون من أصحاب الصراط السوى ومن اهتدى » . .

* * *

بذلك تختم السورة التى بدأت بنفى إرادة الشقاء عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من تنزيل القرآن ، وحددت وظيفة القرآن : « إلا تذكرة لمن يخشى » . . والختام يتناسق مع المطلع كل التناسق . فهو التذكرة الأخيرة لمن تنفعه التذكرة . وليس بعد البلاغ إلا انتظار العاقبة . والعاقبة بيد الله . .

كتب للمؤلف

١ ــ فى ظلال القرآن	(فى ثلاثين جزءاً)	دار إحياء الكتب العربية
٢ ــ العدالة الاجتماعية فى الإسلام	(طبعة رابعة)	» » » »
٣ ــ معركة الإسلام والرأسمالية	(» ثانية)	دار الإخوان للطباعة والصحافة
٤ ــ السلام العالمى والإسلام	(» ثانية)	مكتبة وهبه شارع إبراهيم بعابدين
٥ ــ دراسات إسلامية	(» أولى)	مكتبة لجنة الشباب المسلم
٦ ــ التصوير الفنى فى القرآن	(» ثالثة)	دار المعارف
٧ ــ مشاهد القيامة فى القرآن	(» ثانية)	» »
٨ ــ النقد الأدبى : أصوله ومناهجه	(» ثانية)	دار الفكر العربى
٩ ــ أشواك	(» أولى)	دار سعد مصر بالفجالة
١٠ ــ طفل من القرية	(» »)	لجنة النشر للجامعيين
١١ ــ الأطياف الأربعة	(بالاشتراك مع إخوته)	» » »
١٢ ــ القصص الدينى	(بالاشتراك مع الأستاذ السحار)	» » »
١٣ ــ الشاطئ المجهول	(شعر)	. . . نفد
١٤ ــ كتب وشخصيات	(نقد)	. . . »
١٥ ــ مهمة الشاعر فى الحياة	(»)	. . . »
١٦ ــ نقد كتاب مستقبل الثقافة	(»)	. . . »
١٧ ــ المدينة المسحورة	(قصة)	. . . »

الكتب التالية

(١) نحو مجتمع إسلامى
(٢) أمريكا التى رأيت
(٣) حلم الفجر (شعر)
(٤) قافلة الرقيق (شعر)

